إهداء
إلى من يُعلي العقل شرعاً هادياً طلاّعاً

لا يبدو البحث عن دلالات كلمة)المشرق(سهلاً بسبب تداخل الجغرافيا بتنوعها والبيئات الاجتماعية بامتداداتها واللغات بتجليّاتها واتساعها وحقول معانيها، والتاريخ الموغل والمتشابك حرباً وسلماً،.. عمارة وحضارة ودماء، والأسطورة وسطوتها والدين وحضوره القوي، والثقافة بفلسفتها وآدابها وبما تمثله من طرق بحث وتفكير. ومع ذلك تجد كلمة المشرق صدىً واسعاً بحيث أن شريحة وازنة ومن جميع الفئات على هذه الرقعة الجغرافية المترامية ترى نفسها فيه، حتى باتت هذه الكلمة "أيقونية" وذات جَرْسٍ محبب وغير منفّرة حتى لغلاة العقائديين، وتجلّى منها ومن اشتقاقها جمعيات ومؤسسات، لا بل بدأت منذ عدة سنوات بالدخول إلى القاموس السياسي كبديل لتعبير)الشرق(الذي اندرج تحت مسميّات المصطلح الاستعماري في تقسيمه إلى أدنى وأوسط وأقصى، وأحياناً تضاف كلمة)جديد(مثلما استخدم مصطلح)الشرق الأوسط الجديد(، بينما اقتصرت كلمة المشرق على البعد الحضاري والآثاري والروحي لدى الباحثين والمفكّرين.

وحتى لا يغرق معنى المشرقية المشتق من المشرق في أتون السياسة البحت ويتوَّسله البعض هودجاً وعبّارة لأهداف سياسية فقط، من دون الاتكاء على المصطبة المعرفية للكلمة وبعدها الحضاري التاريخي، كان لا بد من محاولة الغوص بحثياً لتحديده جغرافياً وتاريخياً واجتماعياً وحضارياً، حتى إذا أراد أحدهم الانطلاق به نحو السياسة الواضحة المعالم وذات الأهداف النبيلة التوّاقة إلى مجتمعات حرّة ومعرفية، يكون قد انطلق من أرضية صلبة، فالمصطلح الواضح يذهب بنا إلى غايات واضحة، أما المصطلحات الغائمة التي تتكئ على الظرف والمصلحة السياسية الضيقة فإنها تدفن فور انتفاء هذا الظرف وهذه المصلحة.

المشرق/المصطلح

إذا انطلقنا من خارج النص الديني المسيحي، فإن المؤرخين وعلماء الآثار استخدموا مصطلح المشرق ليدُل على منطقة جغرافية تمتد من الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وبرزخ السويس إلى جبال طوروس وصولا إلى بلاد الرافدين، وأطلقوا المصطلح كمحاولة منهم للتغلب على التقسيمات السياسية وتداخلها في هذه المنطقة الشاسعة من العالم.

وإن أوّل من استخدم كلمة المشرق كمصطلح دالٍ على منطقة جغرافية لم تُحدد فعلياً كان الإيطاليون خلال العصور الوسطى، ثم الفرنسيون والإنكليز والترك، فالإيطاليون كانوا سبّاقين في العمل والعلاقات التجارية عبر بوابة المشرق الكوزموبوليتانية، أي مدينة حلب، حيث وقّعت البندقية أول معاهدة تجارية مع هذه المدينة سنة 1207م وتلتها إمارات أخرى، ثم افتتحت أول قنصلية للبندقية فيها عام 1548 ثم قنصلية فرنسية عام 1562 وإنكليزية في 1586.

والمشرق الكلمة/المصطلح هي في ترجمتها الحرفية "البلاد حيث تشرق الشمس"، وشكّلت عبرَ توصيفها لدى المؤرخين وعلماء الآثار تنوعاً حضارياً وجسراً وربما طريقاً سريعاً للتجارة بين مناطق متنافسة.
ولفهم التاريخ لا بد من العودة إلى بدايات الحضور الاجتماعي وتكوّن الجماعات في هذه المنطقة وتحديد دورها بصناعة المنتج الثقافي- الحضاري- السياسي- العلمي- الروحي- الاقتصادي ضمن السياق الجغرافي المشرقي ومنه إلى العالم.
علمياً وعملياً تمتد المنطقة المشرقية حتى فارس من خلال تناغم وتواصل مصلحي راكمته الثقافات والديانات والتجارة، بينما قدمت الاكتشافات الأركيولوجية بعد الخمسينات من القرن الماضي إضافات هامة على فهم تكوّن المصطبة المعرفية والإنتاجية والعمرانية فيها، وإضاءة واضحة على معالم المنتج الإنساني، شكلّت قيمة مضافة للإمساك بزمام ما أعطاه المشرق من إضافات حضارية، يبدو أنها كانت تتعثر عند قوس الصحراء في الجزيرة العربية التي انغلقت بعد الفتح العربي

للمشرق، وباتت أحادية الأتنية والدين، وحافظت على قبائليتها، وتنامى ذلك بشكل متدرج، ضاعفته غزارة النفط ومردوده، لتصبح الجزيرة والخليج في القرن العشرين مجتمعاً ذو بعد ثقافي مصلحي آخر، وتجلّى ذلك من خلال مقارباته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وحتى الأنتروبولوجية.

هذا المشرق ومنذ بداية الاجتماع البشري، أي منذ المستوطنات الزراعية الأولى، وبعدها في الممالك والإمبراطوريات والمدن/الدول، وتالياً عبر تجلّيه الدولتي المعاصر، لم يكن يوماً بحالة استقرار طويل جراء موقعه المفتاحي في مركز العالم القديم، وكونه عقدة مواصلاته وتجارته وبوابة نحو الشرق البعيد، وجراء زرع إسرائيل فيه كحارس للمصالح العالمية بعد الحرب الثانية ولتخلّص الأمم الأخرى من غيتوات اليهود فيها، وهو في الوقت عينه بؤرة تجليات الحضارات الأولى لاختزانه عبر التاريخ المدوّن إنجازات العقل البشري في تحدياته الطبيعية والحضارية والفلسفية والفكرية والدينية، وصولاً إلى الأساطير المؤسِّسة لحقل المعاني في الذاكرة الجَمْعية لسكان هذه المنطقة من العالم، ثم انطلاقا منه إلى عوالم أخرى، لذلك يبدو المشرق حالة معقدة ومكثفة من تشابك المصالح والإرادات والثقافات والأديان.

التكوّن التاريخي للمشرق

منذ الألف العاشر ق.م حتى المسيحية

أثبت البحث الأثري أن التجمع البشري الأول ذو الطابع التكافلي الإنتاجي المصلحي وجد للمرة الأولى في المنطقة المشرقية، حيث يقول تشارلز ريدمان إن أولى التجمعات البشرية المستقرة وأولى القرى المبنية في السهول المفتوحة قامت في فلسطين ووادي الأردن خلال الألف العاشر والألف التاسع ق.م، فيما يقرّ علم الآثار الحديث بأن الثورتين النيولتية والمدينية قد حدثتا لأول مرة بتاريخ البشرية في منطقة الشرق الأدنى القديم، وهي المنطقة الوحيدة التي حققت ثورتها بمعزل عن أي تأثير خارجي جاعلة نفسها نموذجاً أول للتحولات التالية في المناطق الأخرى، فيما يشير

جيمس ميلار إلى أن أولى التجارب الزراعية تمت ضمن الشريط الممتد من جنوب حلب إلى صحراء سيناء، ويعتقد أن الأولوية كانت لموقعين هما)تل المريبط(على الفرات و)أريحا(في وادي الأردن نحو نهاية الألف التاسع وبداية الألف الثامن.

من جهته يوردُ جاك كوفان "أن الدلائل تشير حتى الآن إلى أن هذه التحولات الكبرى التي شكلت القاعدة الصلبة لحضارتنا المدنية تمّت في الشرق الأدنى القديم قبل أن تتم في أي مكان على الكرة الأرضية"، وأخذت القرى الصغيرة شبه المستقرة، التي يسكنها بين 250-50 شخصاً يمارسون زراعة القمح، شكلها مطلع الألف التاسع قبل الميلاد بفلسطين وغور الأردن وسُمّيت بـ"الحضارة النطوفية"، ويضيف أنه كشف 13 موقعاً منها بين جنوب دمشق ونهايات صحراء النقب باتجاه سيناء. وقد انتهت هذه الحضارة، من دون معرفة السبب، نهاية القرن التاسع.
وما بين الألف العاشر والسادس انتقل الإنسان من الصيد والالتقاط إلى الاستقرار والزراعة وتربية المواشي ، حيث يقول ميلار إن الزراعة انتشرت في المنطقة المشرقية كلها، ولم يأت الألف السادس قبل الميلاد حتى كانت الثورة النيولتية قد عمّت مناطق الشرق القديم وانطلقت منها نحو آسيا وجنوب أوروبا.

لقد بدأ التحول الحضاري الكبير بعد ثقافة العصر الحجري القديم الذي امتد 90 ألف سنة وانتهى في الألف العاشر قبل الميلاد وسمي بالثقافة الباليوتية)palaeolithic(أواخر الألف التاسع وأوائل الألف الثامن، وتميّز بالاستقرار التوَّطني وبناء المستوطنات والزراعة وتدجين الحيوانات، ما جعل الإنسان في المشرق يخرج إلى الأرض المفتوحة، وهو ما أحدث العصر النيوليتي وثقافته بين 8500-4500 ق.م.

وبدت أريحا في فلسطين مثلاً بلدة مكتملة المواصفات الحديثة، من حيث أول سور معروف في التاريخ بلغت سماكته ثلاثة أمتار وارتفاعه أربعة، وذلك منذ العام 8500ق.م، وبقيت مأهولة 1000 عام، ما يدّل على اقتصاد وبنية مدنية وسياسية مستقرة وموارد مادية وبشرية، فيما صارت الزراعة خلال الألف السابع العامل

الأساس بحياة القرى الكبيرة التي ازداد عددها من ساحل المتوسط إلى الفرات وبادية الشام ومن طوروس إلى أريحا.

وأثبتت أبحاث علم الآثار والنبات أن ظهور الزراعة حصل في سهول سورية الداخلية وسفوح زاغروس الغربية شرق بلاد الرافدين، وأن التجارة بدأت تمد خطوطها الاقتصادية وصولا إلى الأناضول، وفي 6500 ق.م ظهرت مستوطنة شتال حيوك جنوب الأناضول، وهي قريبة الشبه بالمدن السومرية التي ظهرت بعد 3500 سنة في بلاد الرافدين بمعابدها وعمارتها وتماثيلها.

وانطلاقاً من بداية الألف السادس قبل الميلاد بدأ العصر الفخاري وباتت الكثافة الحضارية ضمن منطقة بلاد الرافدين واضحة، ومنذ 5500–4500 ق.م نشأت في وادي الرافدين الأعلى، وصولاً إلى شواطئ دجلة ثلاث حضارات)حسونة وحمارة وتل حلف(، أنجبت للعالم تجليّات فنية تمثلت بالفخاريات المتناسقة جيومترياً والمتعددة لونياً وبرز النحت وفن العمارة والحياكة وتقنيات الزراعة والتعدين بشكله المتواضع.

بانتهاء حضارة تل حلف في العام 4500 ق.م، تنتهي الثقافة النيوليتية ويبدأ العصر المديني من تل العبيد جنوب الرافدين كمقدمة وتمهيد للحضارة السومرية واختراع الكتابة وعصر التدوين، وعلى أرض وادي الرافدين ظهرت أولى المدن في العالم محدثة ما يسمى بالثورة المدينية)urban revolution(مع ما أنتجته من نظم دينية ومدنية وسياسية ما زالت مستمرة حتى وقتنا الحاضر. وفعليا لم يبلغ لأي حضارة، ما قبل تل العبيد التأثير في جميع الاتجاهات مثلما فعلت، حيث يرى غوردون شايلد أن الثورة المدينية وظهور المدن الأولى تم في سومر بوادي الرافدين ومنها انطلقت جنوباً إلى مصر وشرقاً إلى الهند.

تدفق السومريون، الذين يختلف الباحثون حول موطنهم الأصلي، منذ مطلع الألف الرابع على جنوب الرافدين وبنوا حضارتهم على أنقاض حضارة تل العبيد وكاستمرار لها، وأعطوا هناك العناصر الأولى التي قامت عليها الحضارة البشرية

من الكتابة إلى الدولاب والمحراث والرياضيات عبر النظام العشري، فقسموا محيط الدائرة إلى 360 درجة والسَنَة إلى 365 يوماً ووضعوا مبادئ الهندسة والفلك وشيّدوا المعابد واستحدثوا نظم الحكم والإدارة وصاغوا الشرائع المكتوبة. ومنذ العام 3500 ق. م عمَّت هذه الانجازات المدينية الجهات الحضرية المعروفة فاجتازت الأناضول ووصلت إلى جنوب أوروبا وقبرص وكريت، أما نحو إيران والهند ومصر فقد تأخرت موجة الانطلاقة إليها قليلاً ، مع الإشارة إلى أن الزراعة لم تُعرف في العالم الجديد قبل عام 2500 ق.م، وقد اتسمت الفترة السومرية بتعدد السلالات الحاكمة في بقعة جغرافية محدودة انقسمت إلى دويلات/مدن وما يجاورها، فعرفت تاريخياً بعصر فجر السلالات أو عصر دويلات المدن، ومنها كيش وأور ولغش وأوما.

ظهر الأكاديون داخل المناطقَ الجنوبية من بلاد الرافدين من ضمن السومريين والسكان المحليين واستطال وجودهم اللغوي والحضاري والسياسي عبر الإمبراطوريتين البابلية والآشورية والكلدانية، وقضوا على سومر منذ العام 2340 ق.م موَّحدين معظم المنطقة المشرقية فبلغ نفوذهم سفوح جبال زغروس وأعالي الفرات والبحر المتوسط والأطراف الشمالية للجزيرة العربية، وشهدت بداية حكمهم رخاء كبيراً وحرصوا على ربط جميع المراكز والفعاليات المجتمعية الهامة بهم وبقصرهم الملكي، حيث قضوا على مفهوم الدولة/ المدينة، واستعاروا الكتابة المسمارية بظل ثنائية لغوية بين السومرية والأكدية.

أما الظاهرة الأركيولوجية والتاريخية على مقربة من البحر المتوسط فكانت اكتشاف مدينة إيبلا)تل مرديخ(بمحافظة إدلب السورية أواخر ستينات وسبعينات القرن الماضي، والتي تعود حضارتها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، حيث ظهرت مملكة إيبلا كحاضرة مستقلة وقوية ومزدهرة بشمال غرب سورية يسكنها الآموريين والحوريون، وبسطت نفوذها على المناطق الواقعة بين هضبة الأناضول شمالا وشبه جزيرة سيناء جنوبًا، ووادي الفرات شرقًا وساحل المتوسط غربًا، وأقامت علاقات تجارية ودبلوماسية مع دول المنطقة من العراق إلى مصر.

وكشفت المحفوظات الملكية بموقع تل مرديخ بين عامي 1974 و1975م، الرقيمات التي تعود للنصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، وهي بالخط المسماري، لغة جديدة هي الإيبلائية، بحيث قلب اكتشاف إيبلا المفاهيم التي سادت لدى المؤرخين بأن أكاد هي أقدم إمبراطوريات المنطقة، وقد دَلَّت الرقيمات الأثرية بأنها سبقت الإمبراطورية الأكادية بأكثر من مائة عام، وعرفت الملكية وتنظيم الحكم، أي مفهوم الدولة، حيث كان الملك رأس الدولة والمسؤول عن السياسة الداخلية والخارجية والمشرف على الأعمال الإدارية والقضائية، يعاونه مجلس للشيوخ مهمته مراقبة ممارسات الملك للسلطة، فيما احتلت الملكة)Maliktum(دوراً ريادياً بحياة المملكة الاقتصادية،من حيث إشرافها على مصانع الغزل والنسيج وتنظيم الزراعة وعائداتها، وأهمها الزيتون واستخراج الزيت منه.

كما كشفت إيبلا عن فتحٍ جديد بمفهوم العلاقات الدبلوماسية في العالم القديم عبَّر عن رِفعة ملحوظةٍ بدليل المعاهدات المعقودة مع جيرانها، كمثل المعاهدة مع ملك آشور التي تنظم العلاقات ما بين المملكتين، لا سيما التجارية منها.

واستعمل الإبلائيون الخط المسماري الذي عُرف عند السومريون نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، مع العلم أن الكتابة المسمارية استعملت في أكثر لغات المشرق القديم كالسومرية والأكادية والحورية والحثية، وبعض أشكال النحو فيها موجود في العربية والعربية الجنوبية، بيد أنها من الناحية المعجمية أشد ارتباطًا باللغات السورية الشمالية الغربية)الكنعانية والأوغاريتية والآرامية(.

ولا يمكن للمتأني بعد أن يقرأ ما قدمته إيبلا إلا متابعة ما قدمه الآموريون)سكان الغرب(الذين أبانت وثائق إيبلا)تل مرديخ(عن أعمالهم، وقد لعبوا دوراً كبيراً في الملعب المشرقي، حيث تشير الوثائق إلى أن قبائلهم بدأت تظهر أواسط بلاد الرافدين وجنوبها على شكل موجات كبيرة قادمة من بادية الشام منذ نهاية الألف الثالث ق.م، إلى أن تمكّنوا من الجزيرة العليا وبلاد الشام منذ أواسط الألف الثالث ق.م، وسادوا خلال النصف الأول من الألف الثاني ق.م في مناطق واسعة متفرقة من تلك البلاد،

وتذكر أسطورة لوغال باندا ووثائق أن البدو الأموريين نهضوا في بلاد سومر وأكّاد، ووصفوا بأنهم لا يعرفون الحبوب، وليس لديهم مدن ولا بيوت ثابتة، فقد كانوا مربي أغنام في المقام الأول يتجولون بقطعانهم داخل مناطق البادية، ويعيشون من منتجاتها، وبعد استقرارهم في الأراضي الزراعية تحوّلوا إلى ممارسة الزراعة وبعض الحِرف، وكان يقوم على رأس كل قبيلة منهم شيخ يسيّر شؤونها بالتشاور مع مجلس يضم كبار رجالها ورؤساء العشائر والأسر الكبيرة، ولم تكن هناك قوانين مكتوبة لهم، بل أعراف وتقاليد لها فعل القانون، واختفى دورهم السياسي مع تحوّل المنطقة، بدءاً من أواسط الألف الثاني ق.م إلى مسرح للصراع بين قوى سياسية كبرى.

إن البحث في الدول التي ظهرت على الجغرافيا المشرقية طويل ويحتاج إلى كتابٍ خاص، لكن هنا لا بد من أن يقودنا البحث إلى البابليين الذين مزجوا بين أساطير وثقافات من سبقهم إضافة إلى حضورهم السياسي والعسكري داخل الجغرافيا المشرقية، وأشهر ملوكهم، حمورابي)1750-1792ق.م(الذي بسط سلطته على بلاد الرافدين منهياً حقبة طويلة من الانقسام، وشكّل خارج الهاجس العسكري للإمبراطوريات القديمة مَعلَماً ما يزال مستمراً عبر شريعته أو قوانينه التي تميَّزت ببساطتها واقترابها مما يفهمه العامة وعدالتها ومنطقيتها في تلك الحقبة من التاريخ، والتي ما تزال حتى الساعة مرجعاً للقانون الجزائي، فقد جمعَ مختلف الاجتهادات القضائية المتوارثة ضمن إطار مملكته ومحيطها وقام بتبويبها في 282 مادة حتى تكون مرجعاً للحكّام والقضاة ونقَشَها على 40 مسلّة وزّعت في أرجاء الإمبراطورية، كي لا يترك عذراً لأحد بعدم تطبيق القانون، ومن أهمها " العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم". أما القانون المتعلق بالإعدام فما يزال معاصراً إلى حد كبير ويقارب الثقافة العامة المشرقية المتوارثة، حيث كان يتم تطبيقه على هتك العرض واختطاف الأطفال وقطع الطريق وسرقة المنازل ومضاجعة المحارم والهروب من المعارك واستغلال الوظيفة لمصلحة شخصية، محاولاً أن لا يظلم الغني الفقير أو يجتاح القوي الضعيف وأن يجلب العدل لليتيم والأرملة وأن يفي المظلومين حقوقهم.

أما الآشوريون، فيعتقد بعض علماء الآثار أنهم جاؤوا من الجزيرة العربية، وقراءتهم

عبر منحوتاتهم وصورهم تظهرهم أصحاب أنوف معقوفة وقسمات قاسية، وقد مالوا إلى الشدة في معاملة المغلوبين وإلى الحكم المطلق، وكانت الحرب صناعتهم "الوطنية" وشعارهم "أضرب قبل أن تُضرب، وهاجم قبل أن تُهاجم، واجعل تنكيلك بأقرب خصومك عبرة يخشاها بقية أعدائك"، لكنهم دونوا الكثيرً من القوانين، ولاسيما قوانين التجارة والملكيات الزراعية، وكان لديهم تنظيم دقيق للقضاء والعقود، وأحكام شديدة على المخالفات التي تتصل بالأرض والعبيد، وكانوا كالبابليين يتّبعون المعتقدات والممارسات الدينية السومرية - الأكدية، واعتمد أدبهم على إعادة كتابة الأساطير القديمة السومرية والبابلية، وتأثروا كثيراً بالبابليين والحثيين،، فيما تقترب لغتهم وكتابتهم من اللغة والكتابة البابلية، وبين القومين نقاط حضارية مشتركة، وبخاصة الديانة، كما طوروا أشكال العلامات المسمارية فغدت أكثر تناسقاً واستقامة، واختُصر عددها وتغير لفظ بعض المقاطع ومدلولاتها، فيما عرف لاحقا بِـ" علم الآشوريات".

لقد وحدّ الآشوريون المنطقة المشرقية بحدّ السيف وبالقوة، ولم يكن التوسع هاجس ملوكهم بقدر الكسب المالي، والدليل على ذلك شلمانصر الثالث)834-858 ق.م(، الذي اجتاز الفرات ووصل البحر الأبيض المتوسط فغسل سلاحه فيه تبعاً للتقاليد الرافدية القديمة وقطع عدداً من أشجار الأرز والسنديان من جبال الأمانوس للقصور والمعابد ، ثم التفت إلى الممالك الآرامية على الفرات فأخضعها، فيما شهدت إمبراطوريتهم حكم أول امرأة)شميرام(، التي ذكرتها الأساطير الإغريقية باسم سميراميس، وتميزوا بسياسة نقل أقوام من مكانها الأصلي إلى أمكنة أخرى، ولم يقتصر الأمر على اليهود فقط، ومن ملوكهم تغلات فلاصّر الثالث)727-745 ق.م(الفاتح الشهير الذي حارب الميديين في إيران ووصل إلى الحجاز وألحق دمشق بإمبراطوريته، وسرجون الثاني)705-721 ق.م(الذي أتم حصار السامرة وأسر ملكها وسبى سكانها إلى مناطق الخابور وبلاد الميديين، كما اهتم بالعمران والري وإنشاء مكتبة في نينوى صارت نواة مكتبة آشور بانيبال الشهيرة، فيما فرض ابنه سنحريب)705 - 681 ق.م(الجزية على القبائل العربية وأحرق بابل وأغرقها بالمياه، ثم جعل ابنه أسرحدون)680 - 669 ق.م(ملكاً عليها فبناها من جديد. وأخضع كل

المدن السورية حتى الجنوب، ومعها مملكة يهوذا، ودفعت القدس الجزية، وقضى على صيدا وهدم أسوارها واحتل مصر السفلى وأحرق العاصمة ممفيس، لكن مدينة صور استعصت عليه. وفي عهد خلفه آشور بانيبال)626-668ق.م(، بلغت الإمبراطورية الآشورية أوجها فنجحت جيوشه باحتلال طيبة وإخضاع مصر .

على المقلِب البحري من المشرق كان الكنعانيون قد بدؤوا بالظهور منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وتوجهوا غرباً فسكنوا الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وتواقَتَ مجيئهم من الجزيرة العربية
)حسب بعض المؤرخين(، إلى بلاد الشام والساحل الشرقي للمتوسط مع الآموريين الذين ربطتهم بهم وشائج هجرة وقربى وثيقة ولغوية، وقد اتجه هؤلاء شمالاً وشرقاً وإلى أطراف البادية.

أقام الكنعانيون مدنهم، التي باتت دولاً/مدناً في الشريط المحصور بين البحر المتوسط في الغرب والجبال في الشرق، من خليج الإسكندرونة شمالاً إلى غزة ورفح جنوباً، وأهمها جبيل وصيدا وصور وأوغاريت وأرواد ، وبعدها طرابلس التي أنشئت فيما بعد، وعرف تاريخهم أحياناً قيام اتحاد مؤقت بزعامة صيدا أو صور، وكان لكل مدينة كيان سياسي مستقل يشتمل على المدينة وريفها، لها حكومتها الخاصة، ويديرها ملوك يتوارثون الحكم وقد يكونون من الكهنة، ويساعد الملك مجلس للشيوخ من رجالات المدينة والأثرياء من التجار.
ويرى المؤرخ فيلون الجبيلي أنهم أصليون في موطنهم الساحلي، بينما يخالفه المؤرخ اليوناني هيرودوت فيقول إن أصلهم من الساحل الأرتيري، أما الجغرافي سترابون فيشير إلى أن وطنهم الأصلي كان في منطقة الخليج حيث تتطابق أسماء معابد ومدن مع أسماء المدن الكنعانية المعروفة، أما اسم)كنعان(فيرى بعض الباحثين الآثاريين واللغويين أنه مشتق من)كنع(، أي "انخفض وتواضع"، وسُمّيت أرض كنعان لانخفاضها قياساً إلى الجبال والمرتفعات شرقها من اللاذقية إلى لبنان فالجليل، وذُكروا ككنعانيين منذ القرن الخامس عشر ق.م ، بكتابة مسمارية نقشت على تمثال ملك ألالاخ في تلّ العطشانة بسهل العمق، كما أتى معنى كنعان بما ورد

ضمن النصوص الحورية والأكادية كمرادف لـ"الصباغ الأحمر الأرجواني" أي بالاسم الذي أطلقه الإغريق عليهم)فينيقيون(نسبة إلى هذا اللون المشتق من لفظة)phoinix(التي تعني باليونانية اللون الأحمر الأرجواني، وطغى هذا الاسم منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد وحتى العصر الهلنستي، على حساب الكنعانيين.

مارس الكنعانيون التجارة العالمية، ولم يقتصر عملهم على شرق البحر المتوسط وشماله وسواحله الغربية والجنوبية، بل عبروا مضيق جبل طارق إلى المحيط الأطلسي، وتمكّنوا من تسيّد المتوسط إبحاراً وتجارة، ويلاحظ العلاقة الوثيقة التي ربطت المدن الكنعانية بمصر تجارياً وثقافياً، حيث أشارت الأساطير المصرية التي تحدثت عن أوزيريس إلى تلك العلاقات، لكن لعل من أهم ما أنجبه الكنعانيون هو الحرف، أي الأبجدية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً وذلك خلال القرن الخامس عشر ق. م، ومنذ العام 1050 ق. م بدأت تسمى الأبجدية الفينيقية، ووجدت في جبيل وعُثر على نموذج تدريسي منها في أوغاريت، وقد انتصر بها الحرف الكنعاني على جميع ما سبقه، وما أن أخذه الآراميون وطوَّروه حتى باتت الآرامية اللغة الأولى في العالم القديم.
كما أن الشكل البدائي للتوحيد تم لديهم عبر عبادة الإله إيل، الذي آمنوا به كرب الأرباب وخالق السماء والأرض والبشر،وأطلقوا على أنفسهم صفة " شعب إيل" أو "شعب السيد" ، والسيد لقب من ألقابه حيث كانوا يصفون أنفسهم بذلك وليس بشعب الآلهة.

أما الآراميون فانتشروا وسط وشمال سوريا والجزء الشمالي الغربي من بلاد ما بين النهرين على شكل مجموعات ما بين القرنين الثاني عشر والثامن قبل الميلاد، وأنشأوا عدة دويلات في الجزيرة بين دجلة والفرات، ومع ازدياد قوتهم استقروا بين تدمر وجبل البشري وسط سوريا وتل حلف في الجزيرة الفراتية فكوَّنوا ممالك، وتوسع انتشارهم في أنحاء المشرق شرق الفرات وغربه أواخر الألف الثاني ق.م، وورد ذكرهم لدى الآشوريين تحت اسم قبائل)الأخلامو(.

أسس الآراميون فـي نـهاية القرن الحادي عشر ق.م مملكة بيت عديني على ضفتي الفرات ضمن المنطقة الواقعة جنوبي كركميش
)جرابلس(, وفـي وادي الخابور إمارات لاقي وبيت بحياني وتل حلف، وبيت خالوب فـي نـصيبين اليوم، وجنوب غرب ماردين فـي الجزيرة السورية العليا، وأهـم دولة أسسوها هي الدولة البابلية الثانية
)الكلدانية(ووصلوا غربًا حتى جبال الأمانوس والساحل السوري واستوطنوا شمآل)زنجرلي فـي تركيا(، وأرفاد قرب أعزاز حيث تأسست مملكة بيت أجوشي التي امتدت على منطقة حلب كلّها وفـي حوض العاصي وصارت لهم مملكة بحماة وأخرى فـي سهل البقاع وعلى سفوح الجبال غرب دمشق قامت مملكة صوبة التي ضمّت أراضي البقاع الجنوبي وجزءًا من وادي بردى قرب دمشق، وعين جر)عنجر(، ومملكة بيت رحوب على نهر الليطاني، وبيت معكة على سفوح حرمون، وجشور شرق بحيرة طبريا ومملكة دمشق فـي حوضي بردى والأعوج وسفوح قاسيون وغوطة دمشق، التي بلغت مكانا كبيراً بحيث قادت تحالف الدول الآرامية الذي ضم اثني عشر ملكاً وأميرًا فـي سوريا الساحلية والداخلية سنة 853 ق.م فيما عرف بمعركة قرقر، بحيث يتضح أن وجودهم عمّ الجغرافيا المشرقية.

لكن الأثر الفعّال للآراميين كان ثقافياً، فقد بلغت لغتهم شأناً كبيراً بحيث تحوَّل المشرق وجواره إلى بحيرة آرامية فقد استعملوا لغتهم الخاصة بلهجاتها المتعددة المأخوذة من حروف أقربائهم الكنعانيين، بعد أن قاموا بتطويرها، بشكلٍ تميّزت فيه عن الأبجدية الفينيقية، واستخدمها الفرس كلغة رسمية للمراسلات و للعقود التجارية منذ قضائهم على الكلدانيين سنة 538 ق٠م ، وقد تعبّدوا لآلهة الكنعانيين، فانتشرت بينهم عبادة)إيل(القريبة من التوحيد، وتكلّم السيد المسيح لغتهم السائدة والأصلية آنذاك حيث تظهر فـي قوله على الصليب "إيلي إيلي لما شبقتني" أي "إلهي إلهي لما تركتني" وغيرها، كما دعيت البلاد التي سكنوها بلاد آرام زمناً طويلاً، قبل أن تأخذ اسم سوريا فـي القرن الرابع ق.م.

عادت المملكة البابلية الحديثة)الكلدانية(الآرامية الجذور، للظهور من جديد في أواخر القرن السابع ق.م، وشكلت بابل)بوابة الإله(عاصمة إمبراطورية كبيرة شملت المشرق)الرافدين والشام(وقوة عظمى فيه، ونصّب نابوبولاصَر نفسه ملكاً في بابل عام 625 ق.م وقضى على الإمبراطورية الآشورية الحديثة، فيما بلغت الإمبراطورية أوج قوتها وازدهارها في عهد ابنه نبوخذ نصّر الثاني) 562-605ق.م(الذي أنشأ برج بابل)زقورة الإله مردوخ(وشارع المواكب وبوابة عشتار وحدائق بابل المعلقة، التي بناها إكراماً لزوجته الميدية، والتي قال عنها المؤرخ الإغريقي هيرودوت" لا تضاهيها في عظمتها وسعتها مدينة أخرى"، وسقطت في عهد نابونيد آخر ملوكها)555-539ق.م(بيد قورش الثاني ملك الفرس فمنع نهبها وتخريبها وأمَّن سكانها على حياتهم مكافأة لهم على فتح أبواب مدينتهم لجيوشه، فصارت مركز الولاية التاسعة وإحدى العواصم الثلاث للإمبراطورية الفارسية الأخمينية، ثم ثارت على داريوس مرتين)522 و521 ق.م(وفشلت، وفي عام 482 ق . م ثارت على الملك إحشورش)465-518 ق.م(فقام بهدم أسوارها ومعابدها وزقورتها، وفي العام 331 ق.م احتلها الاسكندر المقدوني ولاقى ترحاباً من سكانها الذين اعترفوا بحكمه فقدَّم الأضاحي لمردوخ وأمر بإعادة بناء المعابد التي هدمها إحشورش ووضع المخطط لإعادة بناء الزقورة وإقامة ميناء على الفرات لربطها بالخليج، وأراد أن يجعل منه عاصمة إمبراطورية، لكنه توفي فيها عام 323ق.م.

إن أقواماً كثيرة دخلت الجغرافيا المشرقية وإمبراطوريات تنازعت على امتلاكها والسيطرة على ثرواتها بحيث يحتاج أمر إلى مبحث خاص، لكن لا بد من المرور على الحثيين الذين أقاموا مملكة في شرق الأناضول لعبت دوراً بارزاً في تاريخ المشرق خلال الألف الثاني قبل الميلاد، ويظهر التأثير البابلي قوياً عليهم عبر اقتباسهم الكتابة المسمارية، وفي استعمالهم اللغة الأكادية وتراثها العلمي والأدبي، فيما اعتمدوا في نظامهم الاجتماعي على إقطاع الأرض، وتوّسلوا الجيش المنظم بشكل دقيق لتحقيق نجاحاتهم الحربية، لكنهم ذابوا في الجغرافيا المشرقية .

المشرق والإغريق والرومان

شنَّ الإسكندر المقدوني)356 – 323 ق.م(حربه على الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، بقيادة ملكها داريوس الثالث فهزمه وأطاح بملكه عام 633 ق.م وفتح الأناضول والمشرق برمته ومصر وفارس ووصلت إمبراطوريته إلى البنجاب والهند، وبعد موته قُسِّمت بين قواده فكانت مصر من حصة بطليموس، والمنطقة من آسيا الصغرى وحتى الحدود الشرقية، أي الحدود الحالية بين إيران وأفغانستان إلى حد ما، كانت من حصة سلوقس نيكاتور، الذي بنى مدينة أنطاكية واتخذها عاصمة للإمبراطورية السلوقية التي استمرت منذ العام 312 ق.م إلى العام 64 ق.م تاريخ سقوطها على يد القائد الروماني بومبيوس.

ونجم عن التفاعل الحضاري بين الإغريق والمشرق نشوء ثقافة وحضارة عرفت بالهلينستية، ميزته لفترة طويلة، وظهرت في المدن التي بناها الإسكندر كنقاط تحكّم بطرق المواصلات واستغلها الإغريق والرومان من بعدهم للسيطرة على طريق القوافل التي تنقل البضائع إلى الغرب كالتوابل والعطور. ونمت الفلسفة خلال الوجود الإغريقي بشكل كبير وكثرت مدارسها الفلسفية وشارك المشرقيون فيها بشكل ملفت، وكذلك المسرح والنحت والعمارة، حيث تميّز هؤلاء بتسامحهم الديني فكانوا يماثلون آلهة الآخرين بآلهتهم، مع اختلاف التسميات فكلمة)بعل(هي مرادف لكلمة)رب(في اللغة الآرامية السريانية واعتُبر)إيل(مثل)رع(في مصر و)زيوس(عند الإغريق و)جوبيتر(لدى الرومان، فيما رأى الإغريق مثلاً في)ملكارت بعل(إله مدينة صور، تجسيداً لـ)هيراكليس(.

ما كادت الحرب البونية الثانية)195-218 ق.م(وتدمير حلم القائد القرطاجي الشهير هانيبعل باحتلال روما وطرده من قرطاج تنتهي حتى بدأ الرومان بمحاولة السيطرة على المشرق الهلنستي، بمملكتيه السلوقية والبطلمية، فتمكنوا من هزيمة أنطيوخوس الثالث عام 190ق.م، وفرضوا التبعية على السلوقيين في معاهدة أفاميا 188ق.م وباتت المملكة السلوقية تحت حكمهم بينما خضع البطالمة لأوامر الرومان.

وفـي النهاية أنهى القائد الروماني بومبيوس المملكة السلوقية وحوَّل سورية إلى ولاية رومانية عام 64 ق.م، وهكذا وصلت حدود الإمبراطورية إلى نهر الفرات الذي يفصلها عن المملكة الفرثية فـي الشرق، وسقطت المملكة البطلمية وتحوَّلت مصر إلى ولاية رومانية عام 30 ق.م، فتاهَ الرومان بسيطرتهم على المشرق ومصر والأناضول فسمّوا البحر المتوسط "بحرنا" (mare nostrum)، وقد ثبتوا انتصاراتهم بإنشاء ولايات وتنظيمها وعقد التحالفات مع الشعوب المغلوبة وإقامة مستعمرات وطرق عسكرية ضمنت لهم سيطر طويلة الأمد.

المسيحية فـي المشرق

لقد كان مجيء السيد المسيح خلال الحكم الروماني للمشرق انطلاقة روحية كبرى وبداية لتأريخ جديد، فولادته وكرازته وحتى تسميته وكلامه الآرامي حمل دَمغة مشرقية، وضمن الزمن بين بشارته الأولى والاعتراف الرسمي الروماني بالديانة المسيحية عام 313م عبر براءة ميلانو، ثم تحوّلها إلى دين إمبراطوري رسمي جبَّ وألغى ما سبقه، واستطالة المماحكات الفلسفية واللاهوتية التي أرهقت براءة البساطة اليسوعية، وبين انتشار المسيحية انطلاقاً من المشرق نحو العالمية، كانت البحيرة المشرقية قد هضمت وأرست الدين الجديد الذي بات ثقافة انترناسيونية.

جاءت المسيحية فـي عصر متقلقل ومضطرب سياسياً وروحياً وثقافياً وأخذت تشق طريقها بعناء، ومنذ البداية أي انطلاقاً من بشارة الملاك للرعاة بميلاد السيد المسيح أفصحت عن هويتها بالقول"المجد لله فـي الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة)لوقا 14("، حيث يظهر الفكر الجديد واضحاً بأن الله ممجد فـي الأعالي والغاية حلول السلام على الأرض والمسرّة لبني البشر، ولذلك كان فصل الدين عن السياسة واضحاً فـي رد السيد المسيح على سؤال له بجواب أن "ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، لكن هذا لم يُرِح المسيحية من الأبوية اليهودية بشكلها السلطوي الضيق، ولا من تخوّف الرومان من نموذج روحي ثقافي يقترب من الناس البسطاء)الأغلبية(فتعرضت للاضطهاد الديني والسياسي الصارخ.

لكن المسيحية شكّلت منذ البداية حالة ثقافية إيمانية نمت الهوينى وانداحت عالمياً عبر رسالة "اذهبوا وتلمذوا كل الأمم)متى 28، 19(" و" ها أنا أرسلكم كغنم وسط ذئاب فكونوا حكماء كالحيّات وودعاء كالحمام)متى 16،10("، وانطلقت من الجغرافيا المشرقية نحو الغرب والشرق وأصقاع العالم القديم من ضمن تناغم مع المكونات السابقة، وهذا ما ظهر في الصراعات اللاهوتية لاحقاً، ففي ظل حكم الرومان للمشرق والفرس لجزء منه تغلغلت المسيحية تغلغل الماء في التربة عبرَ رسلها وقديسيها وفلاسفتها وعلمائها وشهدائها، وباتت المدن مسيحية بأغلبيتها مُبعدة العبادات السابقة إلى الأرياف، التي سرعان ما دخلتها المسيحية وتخلصت من كلمة "وثني" التي تعني "ريفي"، حيث بقيت اللغة الآرامية ، التي تكلم بها السيد المسيح، ونموذجها في إنجيل متى، ووريثتها السريانية سائدة، وشكّلت ببعدها الثقافي حضوراً أدبياً ودينياً في المنطقة المشرقية وصولاً إلى بعض مناطق آسيا الصغرى ومصر وبلاد فارس منذ القرن التاسع ق.م إلى القرن السابع ب.م، أي أن البعد اللغوي كان آرامياً طيلة ستة عشر قرناً .

ارتبط مفهوم المشرق مسيحياً خلال الفترة الرومانية- البيزنطية بعاصمة سورية ذلك الوقت، أنطاكيا، وتسمية البطريركيات باسم" أنطاكيا وسائر المشرق" مع انتماء معلن إلى أرض السيد المسيح في فلسطين والقدس التي لم تصبح مقراً بطريركياً حتى ما بعد العام 451 م، فيما كانت أنطاكيا والإسكندرية والقسطنطينية مراكز الثقل السياسي واللاهوتي معاً خلال تلك الحقبة.

وبقيت أنطاكيا مركزاً للبطريركيات المشرقية حتى العام 1342م ثم انتقلت إلى دمشق وبيروت، فيما كانت الكنيسة في بلاد الرافدين تسمي نفسها كنيسة المشرق نظراً لوجودها خارج الإطار الجغرافي للإمبراطورية الرومانية، وسُميّت أيضًا بكنيسة السريان المشارقة
)سوريا مدنحيا(نسبةً إلى شرقيّ نهر الفرات، ومنها حالياً
)بطريركية بابل للكلدان(، أما الكنيسة الآشورية فتدعى)كنيسة المشرق الآشورية

الرسولية الجاثلقية المقدسة(، لذلك يلاحظ أن المشرق عنصر أساس ووحيد في كنائس الرافدين التي امتدت أبرشياتها إلى فارس والهند والشرق الأقصى البعيد. أما اللغة السريانية السائدة والقاسم المشترك لكنائس المشرق الرافدية فقد كانت لغة التجارة والثقافة على طول قوافل طريق الحرير وفي البلدان التي تعبرها، ولا تَزال لهجتها العامّية تمسك بلسان معظمُ مسيحييّ العراق وجنوب تركيا من كلدان وأشوريين وسريان وفي إيران وبلاد الانتشار حول العالم.

احتفظت الكنيستان المسيحيتان في أنطاكيا والعراق والجزيرة العليا بصفة المشرق، لأنه ركن أساس في العقيدة المسيحية ، فحسبما يعرف من مكان الجلجلة أنه عند صلبِ السيد المسيح كان موجهاً نحو الغرب، ولذلك يصلي المسيحيون بالتوجه نحو الشرق ناظرين إليه، ولذلك أيضاً تبنى الكنائس بطريقة أن يكون المذبح باتجاه الشرق " لأنه كما يخرج البرق من المشارق ويظهر في المغارب هكذا يكون مجيء ابن الإنسان)متى 24 ، 27(" و "في المشارق مجدوا الله)أش15:24("، وعند ولادة السيد المسيح جاء المجوس)ملوك المشرق(، أي ما يعرف بالفرس حالياً، إلى بيت لحم بفلسطين حاملين له هداياهم من ذهبٍ ولبانٍ ومرّ قائلين"فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له"، كما جاء في)حزقيال 44: 1، 2(أن المسيح الذي ولد في الشرق، ونجمه في المشرق، شبهت أمه العذراء "بباب في المشرق "، ولأن المسيح ولد في المشرق فإن الإيمان المسيحي يركز على أن المجيء الثاني له سيكون في المشرق أيضاً " إن المجيء الثاني سيكون من المشرق وكما صعد هكذا يأتي)أع11:1(" وأن "الرب تقف قدماه في ذلك اليوم علي جبل الزيتون الذي قُدّام أورشليم من المشرق)نبوءة زكريا 14: 3، 4("، وها هي ترتيلة بيزنطية شهيرة تقول" إن مخلصنا قد افتقدنا من العلى من مشرق المشارق ..."، بحيث يتضح أن المشرق ركن مسيحي أساسي، وهذا ما اعتمدته أيضاً الكنيسة المرقسية القبطية في مصر إيمانياً، التي بقيت على تناغم وتواصل مع الكنيسة السريانية الأرثوذكسية ومع القدس.

الفتح العربي الإسلامي للمشرق والعلاقة مع المسيحيين

بعد ستمائة وأربع وثلاثين عاماً من الحضور المسيحي في المشرق جاء دين جديد إليه، ومنه انطلق نحو العالم، وهو الدين الإسلامي، ومنذ أربعة عشر قرناً بات التجاور والتلاقي بين الديانتين حتمياً، رغم الصعوبات عبر هذا التاريخ الطويل، لكن ومن دون أدنى ريب بات المشرق وجواره محكوماً بالكامل بواقع ثقافتين انطلقت واحدة
)الإسلامية(وتقلَّصت أخرى)المسيحية(رغم التجاور والمساكنة، وبات الجزء الروحي من بشر هذه المنطقة محكوماً بهاتين الثقافتين وما يجمعهما أو ما يفرّقهما، ولذلك يتوجب البحث خلال الألفي عام ونيّف الماضيتين وفي قادمات الأيام عمّا يجمع مواطني المشرق ثقافياً وروحياً ومصلحياً ضمن هاتين الديانتين.

عندما وصلَ الجيش العربي الإسلامي إلى مدينة بصرى، عاصمة حوران و)إقليم العربية(خلال العهد البيزنطي سنة)634م(، وهي أول مدينة فتحها العرب خلال زحفهم إلى بلاد الشام بعهد الخليفة أبي بكر الصدّيق، قام أهلها بمساعدة الجيش الإسلامي في قتاله ضد البيزنطيين، ولما وصل الخليفة عمر بن الخطاب لتنظيم إدارة الحملات نزل بحوران التي تعج بذكريات مجيء النبي محمد إلى بصرى لمقابلة الراهب بحيرا وبأخبار ملوك الغساسنة المسيحيين حلفاء الدولة البيزنطية،الذين سرعان ما وقفوا مع القادمين الجدد، فيما قام المسيحيون بمساعدة جيش سعد بن أبي وقاص في العراق مع أنهم كانوا حلفاء فارس عبر دولة المناذرة .

وعندما وصل خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح إلى دمشق في سبتمبر/أيلول عام)635م(قام منصور بن سرجون، جدّ القديس يوحنا الدمشقي، وكان مدير مالية لدى البيزنطيين وموفداً من الحاكم توما صهر الإمبراطور

هرقل)641-611م(بمفاوضة ابن الوليد، فطلب منه أماناً لأهله وسكان دمشق فيما عدا البيزنطيين منهم، سمّي (عُهدة خالد)، فكان فتح دمشق الأول، ثم بعد معركة اليرموك (تموز 636 م) وانكسار جيش هرقل إثر ثورة الأرمن داخل معسكره وامتناع السوريين وملك الغساسنة جبلة بن الأيهم عن قتال العرب المسلمين، دخل هؤلاء من جديد إلى دمشق وأبقوا فيها على 15 كنيسة، بينها كنيسة يوحنا المعمدان)الجامع الأموي فيما بعد(وأخذوا بيوت البيزنطيين الهاربين، وعندما جاء الخليفة عمر منع الجزية عن القبيلة العربية المسيحية الكبرى تغلب التي قال عمرو الشيباني فيها:" لو تأخر الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس" كما لقّب المسيحيون السريان الخليفة عمر بن الخطاب بـ"الفاروق" ومعناه المحرر والمنقذ. ومثل ذلك حصل في القدس عندما سلّمَ البطريرك الدمشقي الأصل صفرونيوس المدينة للخليفة عمر، عام)638م(من خلال ما عرف بـِ)عُهدة عمر(. وقتها دعاه صفرونيوس للصلاة في كنيسة القيامة فرفض عمر الأمر حتى لا يطالب بها المسلمون فيما بعد.

فتح العرب المسلمون بلاد الشام المسيحية بيسرٍ وسهولة، وناصرهم مسيحيو العراق بفتح بلادهم، ولم يروا فيهم غزاة وغرباء عنهم، بل أولاد عمومة بينما كان مسيحيو الشام يعتبرون البيزنطيين حكاماً غرباء، وإذا تمعنّا بما كتبه البطريرك المونوفيزي المؤرخ ميخائيل السوري نجد تبريراً وترحيباً بالفتح الإسلامي حيث يقول: "إنَّ ربَّ الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل لينقذنا بهم من أيدي اليونان وقد أصابنا خيرٌ ليس بالقليل بتحررنا من قَسوة الرومان وشرورهم ومن غضبهم علينا من جهة أخرى"، وعلى الضفة الأخرى في وادي النيل يصف المؤرخ البريطاني إدوارد جيبون في كتابه)تاريخ أفول وسقوط الدولة الرومانية(وضع مسيحيي مصر عند الفتح بـِ "أن العرب استُقبلوا في مصر كالمنقذين للكنيسة اليعقوبية، وأثناء حصار)عمرو بن العاص(لمنف عقدت معاهدة سرية بين جيش منتصر وشعب من العبيد"، فقد اضطهد البيزنطيون الأقباط بشدّة بحجة الاختلاف المذهبي معهم، وينقل المؤرخ البريطاني ألفرد بتلر عن مطران نسطوري قوله " وهؤلاء الذين أعطاهم الله السلطان في أيامنا لا يحاربون المسيح ودينه، بل هم يدافعون عن ديننا ويجلّون قسوسنا وقديسينا ويهبون الهبات لأديرتنا".

لقد كان سكان بلاد الشام الآراميين مسيحيون في غالبيتهم داخل المدن وفي الأرياف والبادية ومن قبائلهم الكبرى تغلب وغسان وكان شفيعهما والعلَم الذي يرفعانه مار سركيس)سرجيوس(، الذي سُميت المدينة العظيمة التي تعرف حالياً بالرصافة باسمه
)سرجيوبوليس(، وكذلك قبيلة كلب التي كانت تنتشر من دمشق إلى بادية تدمر وحمص، وتزوج منها الخليفة معاوية بن أبي سفيان امرأته الشهيرة ميسون، وقبائل قضاعة ولخم وجذام وبكر وطي وغيرها، وكانت علاقاتهم مع قبائل شبه الجزيرة العربية متواصلة فيما كان العراق مسيحياً على المذهب النسطوري وقبائله تشارك القبائل الشامية الأرض والكلأ واللغة والدين والترحيب بالدين الجديد ورجاله.

الشأن الديني في المشرق بين المسيحية والإسلام

سبقت اليهودية والمسيحية الإسلام إلى الجزيرة العربية، ومنذ القرون الأولى حلّت المسيحية فيها، ما يفيد بأنها حاضرة أصلاً في منطلق الإسلام العربي، لا كما يرى غلاة العروبيين الذين يربطون العروبة بالإسلام فقط،، وكان على رأس شعراء ما سمّي بالجاهلية مسيحيون كتبوا شعرهم وعلّق على الكعبة، وكانوا يجولون في الجزيرة والعراق والشام، ووضعوا مداميك شعرية فصحى ما يزال تراثها واضحاً حتى اليوم، ومن دون أدنى شك فإن جميع ممالك العرب وإماراتهم، قبل الإسلام كانت مسيحية وبعضها يهودي، ثم جاء الإسلام فحلّ مكانها آخذاً منها راية الحضور في المنطقة.

وعندما بدأت دعوة النبي محمد)570-632م(كانت المسيحية موجودة في شبه الجزيرة العربية، وتغلغلت منذ القرون الميلادية الأولى في بلاد الشام، فقد اشترك في مجمع خلقيدونية)451م(630 أسقفا معظمهم من المشرق ومنهم 17 أسقفاً من مقاطعة بصرى و10 أساقفة من مقاطعة البتراء فقط، أي من إقليم العربية، فيما شارك من أنطاكية 130 أسقفا، أما في مكة، مسقط رأس النبي محمد فكانوا قلة،

لكن حضوراً لافتاً كان للقس ورقة بن نوفل، فيما كان المسيحيون أكثرية في نجران التي قدم وفد منها للمباهلة مع النبي الذي سأل عن قس بن ساعدة الأيادي الشهير.

كان النبي الجديد يتعبد في غار حراء قرب المدينة مع القس ورقة بن نوفل، وهو كما تدل صفته مسيحي كان يقرأ الإنجيل وينقله من العبرية للعربية وشهد انطلاقة الديانة الإسلامية، وروى البخاري أنه "ثم لم ينشب أن توفي ورقة وفتر الوحي"، وزوّجه القس ورقة بابنة عمه التاجرة الثرية خديجة بنت خويلد، وهو أول من تنبأ بأنه سيكون لمحمد شأن كبير، وعندما سيطر النبي الجديد على مكة ودخل الكعبة لهدم الأصنام أمر أيضا بطمس الصور فطمست، بيدَ أنه وضع كفيّه على صورة المسيح وأمه وقال" امحوا كل شيء إلا ما تحت يدي، فرفع يديه عن صورة عيسى بن مريم وأمه"، كما تزوج مارية القبطية.

من الواضح أن النبي محمد كان يعرف المسيحية عبر خطٍّ فكري لاهوتي)الآريوسية(اعتبرته المسيحية بدعة في مجمع نيقية)325م(الذي حضره الإمبراطور قسطنطين، واستمر هذا الخط موضع أخذ ورد واتهامات وتصفيات داخل الكنيسة حتى القرن السادس الميلادي، ونتبيّن ذلك من رسالة محمد إلى هرقل ملك بيزنطة التي جاء فيها:

)بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدى وأما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تَسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين، و(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ"(.

يظهر من الرسالة أن النبي يدافع عن الآريوسيين ويعتبرهم مضطهدين وأن إثم اضطهادهم سيحلّ على "عظيم الروم". أما الآريوسية فقد كانت مذهباً مسيحياً لم يعد له وجود حالياً وتنسب إلى آريوس، أحد كهنة الإسكندرية)حوالي 250 - 336(،

أطلقَ جدلاً واسعاً وخطيراً بين المسيحيين الأوائل يتمحور حول ألوهية المسيح، عبر التساؤل هل كان المسيح فعلاً هو الله المتجسد، أم كائناً مخلوقاً؟.هل هو الله، أم يشبه الله؟.

ورسم آريوس أجوبته بأن المسيح خُلق بواسطة الله كأول أعمال الخليقة، وهو تاج كل الخليقة، ومذهبه يقول: إن المسيح كائن مخلوق له صفات إلهية، لكنه لم يكن إلهاً بذاته. وهذا أقرب إلى صورة المسيح في القرآن، لذلك تتضح معرفة محمد بالمسيحية، فمن يعرف الآريوسية يعرف المذاهب التي تناقضها.

ذكر القرآن الكريم المسيحيّة والمسيحيّين في حوالي 117 آية كان في أغلبها ملايناً ومقارباً للعلاقة بطريقة تختلف عن مقاربته لديانات أخرى، حيث جاء في سورة المائدة)82 ،83("لتجدن أشد الناس عداوة للذين أمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون"، كما أن القرآن لم يساوِ في أحكامه بين النصارى والمشركين، فهو لا يرغمهم على الإسلام مقابل دفع الجزية، لا بل يتيح للمسلمين أن يأكلوا من أكلهم وأن يتزوجوا نساءهم " الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

)المائدة 5("، وعدّ القرآن المسيحيين أهل كتاب فحدد التعامل معهم، في حال تمسّكهم بدينهم، أن يدفعوا الجزية تمييزا لهم عن الوثنيين الذين لم يكن أمامهم إلا الإسلام أو السيف.

وتظهر النقاشات الدينية التي أجراها النبي محمد مع وفد "نجران "مدى التقارب بين الديانتين وكذلك إرساله أتباعه إلى ملك الحبشة المسيحي، حماية لهم من ظلم قومه، أو علاقته بالراهب بحيرا في بصرى الشام، مما يعني أن العلاقات الدينية لم تكن إلغائية بل حوار بالتي هي أحسن ومحاولة استمالة للدين الجديد.

ومع مرور الوقت والتجاور والقربى انتقلت عادات وتقاليد وطقوس مسيحية معروفة في المشرق إلى الإسلام، منها الصلوات الخمس في النهار والوضوء والاغتسال قبل الصلاة والقبلة والمئذنة والمحراب والمسجد والنذور والمجامر في المساجد والجنازات، وربما أخذ المسلمون تجويد القرآن من تلحين تسابيح الرهبان، أما الحج فقد كان المسيحيون يحجّون إلى القدس والرصافة)قبر سرجيوس(وطور سيناء، وكذلك الحرَم، أي حدود الكنيسة أو الهيكل، التي لا يجوز انتهاكها ولها حق اللجوء والأمان، والطواف حيث كان المسيحيون يطوفون حول الكنائس والمزارات الدينية. أما الزكاة فهي تقليد لليهود والمسيحيين الذين كانوا يدفعون العشر لخدمة الكهنة والهيكل، والسبّحة، والصوم حيث كان المسيحيون يصومون ثلاثين يوما...

لكن مع نشوء وظهور المذاهب السنّية تم التعامل مع المسيحيين فقهياً بطرق مختلفة، فالمذهب المالكي لم يهتم بهم كثيراً ونظر إليهم على أنهم فئة من أهل الكتاب يسري عليهم ما يسري على أهل الذمة من أحكام. أما المذهبان، الشافعي والحنبلي فاكتفيا أولاً بأخذ العشر منهم في التجارة.

وتميز المذهب الشافعي بالتشدد تجاه المسيحيين، فأخرجهم من فئة أهل الكتاب وحطَّ من شأنهم، وحرم الزواج بهم وأكلِ لحم ذبائحهم. كما شاركت الحنفية الشافعية، ببعض التصلب في معاملة المسيحيين، وذلك بإجبارهم على ارتداء أزياء معينة ومنعهم من ممارسة شعائرهم بحرية، وتحديد تنقلهم وإقامتهم.

العلاقة الاجتماعية بين الديانتين في المشرق

أدى انتشار القبائل وتداخل مصالحها الرعوية والاقتصادية والسياسية ووحدة أعرافها في المشرق من الجزيرة حتى بلاد الشام وباديتها والرافدين والجزيرة العليا إلى تأمين بيئة خصبة للمسلمين، حيث توجد ضمن القبائل بطون وأفخاذ ترتبط ببعضها بالنسب والدم مهما تباعدت مواقعها.

وتبدّت هذه الأمور بعدم استغراب القبائل المسيحية البعيدة عن مركز انطلاق الدعوة بمكة للدين الجديد، لا بل مساعدتهم للجيش الإسلامي، فساعدت قبيلة تغلب الكبيرة والواسعة الانتشار جيش سعد بن أبي وقاص بمعركة القادسية الفاصلة على قاعدة القبلية مع أنهم مسيحيون، وبقيت علاقات التزاوج متشابكة طيلة عقود مقبلة، فقد أسلم أفراد من أبناء البيت الواحد أو بعض أفخاذ القبائل مثل "الحمدانيين التغالبة" فيما بقيت أقسام وأفراد أخرى على مسيحيتها، وهذا فعل أهل الشام، وعلى الرغم من أن دمشق أصبحت عاصمة الدولة الأموية فقد خَلَت من مسجد واحد حتى بعد مرور 35 عاما على فتحها، عندما بني الجامع الأموي وبأيد محلية مسيحية وبيزنطية وعلى قسم من كاتدرائية يوحنا التي كانت معبداً للإله الروماني جوبيتر، وقبله معبداً للإله الآرامي حدد، وكان الأخطل التغلبي شاعر بني أمية يدخل على الخلفاء ببطرشيله وصليبه.

الإسلام والمسيحية في المشرق سياسياً واقتصاديا

من دولة الأمويين وحتى نهاية الاحتلال العثماني

بعد انطلاقة الدولة الإسلامية الفتية، وتحديداً في العصر الأموي كان لا بد من الاعتماد على المسيحيين المشرقيين بسبب تمرَّسهم بشؤون الحكم والإدارة مع الدولة البيزنطية، والاستفادة من خبرتهم بشؤون إدارة الدولة والضرائب والمالية والبريد وغيرها،إضافة إلى ترحيبهم بالدولة الجديدة، لذلك لم يكن مستغرباً استمرار حضور عائلة سرجون بدمشق كوزراء للأمويين)750-661م(خلال المرحلة الأولى من حكمهم، فقد اعتنوا بتنظيم الدواوين)ما يشبه الوزارات(والبريد والعلاقات مع الولايات بعد امتداد الفتح الإسلامي إلى الشرق وصولاً إلى الصين، وإلى الغرب حتى المغرب الأقصى وازدياد جمع الضرائب، التي تكاثرت لتغطية نفقات الدولة، وقد عهدَ يزيد)أخ معاوية أول خليفة أموي(عندما كان والياً على الشام للمسيحيين

بتدريب العرب القادمين من الجزيرة على السياسة والإدارة، واعتمد على القبائل المسيحية للدفاع عن مركزه ووضع أفراداً معروفين وأكفاء بمراكز الدولة الحساسة إدارياً ومالياً، وأنشأ وزارة المالية التي تضمنت المالية والحربية والبحرية وسلمها لسرجون بن منصور والد القديس يوحنا الدمشقي، وقضت هذه العائلة 60 سنة في خدمة الخلافة الأموية.

يقول هنري لامانس إن "عدد المسلمين في آخر القرن الأول الهجري لم يكن يتجاوز 200 ألف مسلم مقابل 4 ملايين سوري"، لكن بعض القبائل بدأت بالانتقال إلى الإسلام لأنه يعفيها من "الجزية" مما اضطر معاوية بن أبي سفيان إلى وقف الأسلَمة ضمن المناطق المحيطة بدمشق على سبيل المثال، وبلغَ حجم التداخل الديني والسياسي أنه زج نفسه في سجال لاهوتي بين المونوفيزيين والخلقيدونيين، أي بين المؤمنين بالطبيعة الواحدة للمسيح، وكانوا الغالبية الساحقة من المسيحيين المشرقيين، وبين المؤمنين بطبيعتي المسيح اللاهوتية والناسوتية، فجمع بعض أتباعهم وحكم بينهم منحازاً إلى الخلقيدونيين، وهذا بطبيعة الأمر ناجم عن العلاقات المحتدمة بين الأمويين والدولة البيزنطية على الحدود الجديدة التي كانت تذهب بين مدّ وجزر، مرة لصالح هؤلاء لدفع الجزية عن مناطق معينة ومرة لصالح أولئك، ومنها مثلاً انسحاب أو سحب المسيحيين "المردة والجراجمة " الذين كانوا يحمون قوس البادية من هجمات الأعراب عن الدولة البيزنطية إلى تخوم بيزنطة.

وتضافرت مجموعة من العوامل لتجمع الفاتحين المسلمين العرب بالمسيحيين المشرقيين، منها انتماء مشترك وتقارب لغوي ونفور هؤلاء من البيزنطيين الذين اعتبروا بلاد الشام أهراءات حبوب وبقرة حلوب وأرهقوا أهلها بالضرائب، وقد كان معظم أهل دمشق مسيحيين تغلّبت وطنيتهم على ارتباطهم الديني مع البيزنطيين، وبخاصة أنهم رأوا في المسلمين شيعة مسيحية جديدة بعد إجهاد وتململ من الحكم الغريكو-روماني - بيزنطي لأكثر من ألف عام، يضاف إلى هذا أن القبائل العربية الكبرى والأساسية)تغلب وغسان وكلب(كانت مونوفيزية، أي مغايرة لعقيدة الحكام البيزنطيين الخلقيدونيين فوجدوا في العرب الفاتحين الجدد أخوة بالدم وتماثلاً

بالرؤية الدينية، ولذلك كانوا على استعداد لاستقبالهم استقبال الفاتحين من أهل البيت، وكتب المؤرخ الكنسي الشهير ابن العبري "لقد أرسل إله الانتقام العرب ليخلصونا من جور الرومان، فلم يعيدوا إلينا كنائسنا، بل احتفظ كل بما يملك، على أن الله انتشلنا من قساوة الروم وضغينتهم".

لم تخلُ العلاقة بين المسيحيين والأمويين من مد وجزر بعد العام)693م(أيام الخليفة عبد الملك بن مروان ثم بعد حروب العرب الشرسة مع البيزنطيين)705 –711م(حيث عمد عبد الملك إلى تعريب الدواوين وأمر بتحطيم الصلبان)700م(وإعدام أسرى جيوش بيزنطة المسيحيين، وجاء الوليد الأول فأخذ قسما من كاتدرائية يوحنا المعمدان التي كانت سابقاً معبداً وثنياً ليبني عليها الجامع الأموي، لكنه أبقى وكرّم رأس يوحنا المعمدان بقبة خاصة داخل المسجد، كما ساءت أحوال المسيحيين في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز)717-720م(الذي كرّمهم في بداية عهده ثم انقلب عليهم.

ودفع المسيحيّون عموماً الجزية، أما المعاملة الخاصة للنجرانيّين وتغلب فكانت جراء ثرائهم وقوتهم، أما دينياً فقد تابع المسيحيّون ممارسة طقوسهم بحريّة ما عدا فترات حكم متشددة حظر عليهم فيها التبشير عمر بن عبد العزيز، خلال الفترة الأموية، والخليفة العباسي المهدي)775-785م(الذي دعا قبائل تنوخ المسيحية قرب مدينة حلب للإسلام فرفضوا فقتل الكثيرين منهم وهدم كنائسهم وتحول أكثر من 4000 منهم إلى الإسلام، وإن كان تم حظّر بناء كنائس جديدة فهذا لم يطبق دائماً، حيث بنيت أديرة وكنائس في هذه الحقبة.

ولذلك يظهر عملياً أن المسيحية لم تتمكن في الجزيرة العربية من مقاومة الإسلام بقوته السياسية وبعده الديني، فيما استطاعت المسيحية السريانية واليونانية في المشرق أن تستمر وتبقى، فالمسيحيّون المشرقيون لم يكونوا أقلّية دينيّة منغلقة على نفسها بل اندمجوا بشكل شبه كلّي في المجتمع الأموي والعباسي الأول وربّما ساهم ذلك في اتساع نطاق الأسلَمة، وقد أسلم بعضهم في بداية انطلاق الإسلام

حفاظاً على مصالحه)سادة حمير(، فيما أسلم آخرون لحداثة عهدهم بالإيمان بالمسيحية عندما جاء الإسلام
)كلب ، دومة الجندل، عبد القيس في البحرين(، أما من تعمَّقت المسيحية فيهم)نجران(فبقوا على دينهم وتم ترحيلهم فيما بعد إلى بلد الشام، رغم كل محاولات الرسول لاستمالتهم، ومن دون إنكار ضغوط بعض الخلفاء والفقهاء التي أدت إلى تحوّل بعض القبائل والأفراد عن مسيحيتهم .

بعد انتقال الحكم الإسلامي إلى بغداد خلال الدولة العباسية)749-1258م(تابع المسيحيون حضورهم في ميادين العلم والإدارة والتعريب والطب والفلسفة والموسيقى فنقلوا الكثير من التراث الإنساني إلى العربية، وقد كان للسريان دور كبير في هذا، وهناك أسماء لبطاركة وعلماء وأطباء وعائلات بكاملها بقيت قروناً في سدّة المعرفة وعلى مقربة وفاعلية من الدولة والسلطة، وفي عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد سمح للإمبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء في القدس.

لكن العهد العباسي الأول دام حوالي مائة عام فقط، وأدى تدخل الفرس والأتراك والسلاجقة إلى تحول الخلفاء العباسيين فيما بعد إلى دمى بأيدي قادة جندهم وتشرذم الدولة العربية المركزية وظهور دويلات متفرقة في الشام ومصر والمغرب)الطولونية، الأخشيدية، الفاطميون، السلاجقة-الأتراك...(، ما نجم عنه أيضاً تدهور وضع المسيحيين المشرقيين وخضوع وجودهم للأمزجة والفتاوى المتفرقة، ورغم ذلك بدأوا منذ سنة 300 للهجرة يقيمون قداديسهم بالعربية ويشيعون جنازاتهم بحفاوة ويقيمون أعيادهم رغم ظهور بعض التصلّب تجاههم منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة بإجبارهم على ارتداء أزياء خاصة ومنعهم من ممارسة شعائر دينهم داخل المدن التي بناها المسلمون، كالبصرة والكوفة وبغداد، وتحديد تنقلاتهم وإقامتهم، لكن الحكّام لم يتمسّكوا بهذه الموانع إلاّ أنها طبّقت أثناء الأزمات.
وتراجع الحضور المسيحي في منطقة نهر الفرات مثلاً خلال القرن العاشر الميلادي جراء دمار العديد من المراكز المسيحيّة بسبب الاضطرابات السياسية والصراع بين الحمدانيين، وهم فرع أسلَمَ من قبيلة تغلب، وبين الأتراك والروم، كما جرت حرب

داخلية بين عشائر تغلب فـي القرن التاسع، وتغلَّب عليهم القرامطة وفتكوا بهم بمنطقة نصيبين عام 316 للهجرة، ورحل قسم منهم)بنو حبيب(يقدر بـِ 10000 فارس إلى بيزنطة، وقلّت التجمّعات المسيحيّة القبليّة خلال القرن العاشر، ومن بقي على دينه اندمج مع سائر المسيحيّين ضمن الجغرافيا المشرقية، وبقيت بعض العشائر القبلية فـي حوران وشرق الأردن.

مـن جهـتها، جَـرَّت الحـملات الـصليبية، الـتي سـماهـا المسـلمون حـملات الفرنجة،)1291-1096م(وبالاً على المسيحيين المشرقيين حاملة معها المزيد من الأزمات فـي العلاقة مع المحيط الإسلامي، وما زال الأميّون والجهلة والتكفيريون من المسلمين حتى الآن يصفون المسيحيين المشرقيين بالصليبيين، من دون أن يدري الكثيرون أنه عند دخول الصليبيين مدينة أنطاكية)1098م(، التي كانت تاريخياً عاصمة سورية وذات موقع ديني مسيحي مميز، وفتحها العرب سنة)638 م(، وكان السلاجقة احتلوها منذ 14 سنة فقط، قتلوا 100 ألف مواطن ذهب بينهم مسيحيون كُثر من المونوفيزيين وحتى الملكيين الخلقيدونيين، لا بل أخذوا الأديرة وحولوها إلى أديرة لاتينية، ولذلك عندما احتلها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عام)1268 م(، أي فـي نهاية الحملة الصليبية قتل من أهلها 17000 نسمة وأسر 100 ألف آخرين وتركها للحرق والنهب والتدمير، وهذا ما فعله المماليك)1516-1268م(فـي كثير من المدن، وكذلك فعل الصليبيون بالقدس حين احتلوها عام)1099م(فقتلوا 70 ألفا من مسلميها ومسيحييها، لأنهم لم يستطيعوا استيعاب إمكانية التعايش بين الإسلام والمسيحية، بخاصة أن أغلب مقاتليهم من الأفّاقين وقطّاع الطرق والباحثين عن الثروة، وقد زُرع فـي أدمغتهم أن المسلمين أحرقوا كنيسة القيامة، ولذلك هاجر الكثيرون من القدس والقرى المحيطة بها إلى دمشق وسكنوا منطقة ما زالت تسمى"المهاجرين"...

ومن علامات تمسكّ المسيحيين بمشرقيتهم انتقال المقرات البطريركية إلى دمشق بعد خراب أنطاكية، مع الإصرار على الاسم)بطريركية أنطاكية وسائر المشرق(ففي دمشق كرسي بطريركي للروم الأرثوذكس وآخر للروم الكاثوليك وللسريان الأرثوذكس، فيما كان البطاركة الموارنة ينتخبون حتى القرن العاشر فـي دير رهبان بيت مارون

فـي سورية الثانية ، قبل أن يصبح مقرهم فـي لبنان مع بقائهم على اسم أنطاكية وسـائـر المشـرق ، فـيما اخـتـار السـريـان الـذيـن تـحولـوا إلـى الـكثلكة لـبنان مـقراً لبطريركيتهم الأنطاكية أيضاً .

ما بين حملة الإمبراطور نيكفوروس فوكاس)نقفور(البيزنطية عام)968م(والحملات الصليبية، حتى انتهائها عام 1291م باتت المنطقة المسيحية الكبرى التي اشتهرت بـعلم الآثـار المـعاصـر بـاسـم "المـدن المـيتة" فــي مـنطقتي حـلب وإدلـب يـضاف لـها أنـطاكية، مـنطقة للنزاعـات والحـروب والـقلاقـل والـقتل، وبـانـتهاء هـذه الـحملات حلّت مصيبة بواحدة من أهم مناطق العمران المسيحية، حيث انتهى أكبر تجمعٍ مسيحي مشرقي معرفـي عمرانـي زراعي متمدّن ومستقر فـي تلك المنطقة من شمال سورية الحالية، التي تضم بقاياها أكثر من 1600 كنيسةٍ وآبدةٍ أثرية ومدناً وقرى كانت معصرة وخابية الزيت الأولى للعالم القديم، وفـيها كاتدرائية سمعان العمودي الكبرى التي تبلغ مساحتها حوالي 12 ألف متر مربع، وكاتدرائية جوليانوس وناووس مار مـارون فــي بـراد، وقـلب لـوزة وكسيجة وفـافـرتـين وقـورش وكـركبيزة، ومـئات المـواقـع الـعمرانـية ذات الـصفات الـحضاريـة الـوطـنية الـكبرى، حسـب تـوصـيف الـباحـثين والآثاريين الكبيرين هوارد كروسبي باتلر وجورج تشالنكو، إضافة إلى خراب عاصمة المشرق، أنطاكية، التي كان عدد سكانها يتجاوز فـي القرن الميلادي الأول 300 ألف نسمة، وخراب أفاميا، عاصمة سوريا الثانية أو الطيبة، وتقلّص حلب ودمشق وبيروت والقدس وبغداد.

رغم ذلك آثـر المـسيحيون المـونـوفـيزيـون المشـرقـيون السـريـان البقاء داخـل المـناطـق الـخاضـعة للسيطرة العربية حتى أنهم استمروا بحياتهم فـي مقر بطريركيتهم بدير أميانوس، أو دير تل عدا الكبير، قرب دير سمعان العمودي ولم يتركوه حتى اجتياح الصليبيين للمنطقة عام)1104م(، فانتقلوا إلى ديار بكر عام)1030م(للبقاء داخل المشرق وتحت ظل الحكم العربي.

حلَّ الوبال الكبير على المسيحيين المشرقيين خلال حكم المماليك)1250-1517م(،

وهم سلالة من الجنود ذوي الأصول التركية بأسيا الوسطى، كانوا عبيداً وحكموا مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وهزموا الصليبيين ثم تصدّوا لتيمورلنك واستعادوا ما احتله التتار في المشرق ومنها بغداد.
تميّز عصرهم بالقلاقل الكبيرة والحروب والتخلف وعدم فهم مكونات المجتمع، وكان سيئاً بالنسبة للمسيحيين المشرقيين الذين قلَّ شأنهم وتقوقعوا في أحياء وقرى مع بقاء دور تجاري وعِلمي لهم، لكن سياسياً فقد حلّوا في مرتبة دنيا، تدهورت أيضاً مع الفتح العثماني، فبعد سقوط القسطنطينية)1453م(انتقلت الإمبراطورية العثمانية)1924-1299م(نحو الشرق وانتصر السلطان سليم الأول على الصفويين في معركة جالديران وسيطر على العراق وأذربيجان عام)1514م(، ثم دخل بلاد الشام وفلسطين عام)1516م(بعد انتصاره على المماليك بمعركة مرج دابق، واستولى على مصر إثر معركة الريدانية عام)1517 م(، حيث بات للعثمانيين اليد الطولى في المشرق والعالم العربي ونقلوا خلافة النبي محمد إلى القسطنطينية.

وخلال العهد العثماني)1916-1516(حلّت الطامة الكبرى بالنسيج الاجتماعي المشرقي، فبعد قسوة المماليك جاء العثمانيون ووضعوا المكوّن الثاني في المجتمع المشرقي)المسيحيون(، في إطار الذمية السياسية والاجتماعية فخضع هؤلاء لأمزجة الولاة وللسوقِ القسري إلى الحروب، وكانوا يمنعون من السير على الأرصفة داخل المدن، بل وسط الشارع مع الدواب والعربات، وحرموا من وضع غطاء على الرأس، حتى أن كنائس القرى منعت من رفع الأجراس، وخضعت المنطقة كلها لفعل تتريك وتجهيل معاً حتى بدأت الدولة العثمانية تتحلل وتصبح رجلاً مريضاً قبل انهيارها عام 1916، حيث حصلت مجازر ضد المسيحيين في لبنان والشام عام 1860 وشهدت نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، مذبحة مروعة بحق الأرمن والسريان والآشوريين في مناطق الجزيرة العليا وأورفة وماردين وديار بكر،أنتجت جميعها هجرة مسيحية مكثفة إلى الأمريكيتين، كانت بوابة الخلخلة الحديثة للنظام الاجتماعي في المشرق.

المشرق والنهضة العربيّة الثانية

فتحت انطلاقة الثورة الفرنسية)1789م(ووصول أفكار الحرية والعدالة والمساواة إلى المشرق ومجيء حملة نابليون إلى مصر والمشرق)1798-1801م(كوَّة صغيرة في جدار العلاقة مع التنوير، إن بين الشرق والغرب أو بين مكونات المشرق الاجتماعية والدينية، فبدأت أفكار التحرر بالتدحرج والتنامي لأكثر من مائة عام أخرى، لأن المشرق ومصر غرقا خلال عهد المماليك والعثمانيين بجهلٍ وأميّة عارمة.

وكان على النُخَب الفكرية إعادة إحياء اللغة العربية والشعور القومي والانتماء للمنطقة، انطلاقا من انبعاث عصر القوميات في الغرب واتكاءً على موروث اعتبره المشرقيون عظيماً، لذلك ساهم المسيحيون اللبنانيون والسوريون بقوة وفعالية عالية بالنهضة العربية الثانية في خواتيم القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عبرَ إعادة إحياء اللغة العربية والشعور القومي تجاه حالة التتريك، ومنهم ناصيف وإبراهيم اليازجي، والمعلم بطرس البستاني الذي أسس جريدة نفير سوريا ، وأحمد فارس الشدياق ونسيب عريضة وأديب اسحق وجبران خليل جبران، وشبلي الشميل، مع العلم أن الأب لويس شيخو أسس جريدة المشرق وكثيرون غيرهم، ساهموا بدفع الترجمة وانطلاقة الصحف الجديدة في بيروت ودمشق وحلب والقاهرة، التي أضحت ملجأ للمضطهدين منهم، وخاضوا مع النُخَب المسلمة العمل السياسي التحرري، وعُلّق الكثيرون منهم ومن ساستهم والعاملين في الحقل العام على المشانق إلى جانب المسلمين في بيروت ودمشق أواخر العهد التركي، أما الأحزاب العلمانية في بلاد الشام فمؤسسوها مسيحيون، فأنطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي)1904-1949(، الشديد الوضوح بموضوع فصل الدين عن الدولة، أرثوذوكسي من الشوير في جبل لبنان، وميشيل عفلق مؤسس حزب البعث أرثوذوكسي من حي الميدان السنّي بدمشق، الذي يقول "العروبة جسم روحه الإسلام"، ومؤسس حركة القوميين العرب جورج حبش الأرثوذكسي الفلسطيني، مؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وغيرهم.

لكن حركة النهضة أجهضت مع الانتدابات الفرنسية والانكليزية بعد تقسيم سايكس -

بيكو)1916(ثم مجيء الدول الوطنية، فتحولت الحركات القومية التي استلمت السلطات إلى نموذج أيديولوجي عاطفي بكلام حَطَبي وسلطات قمعية، فيما بقيت دول السلالات الملكية غارقة أيضاً بعصر ما قبلَ حداثوي في السياسة والاجتماع.

المشرق والعروبة والمشرق العربي

يحاول الكثيرون نفي العروبة عن المشرقية، أو حتى تقليص حضورها ضمن المشرق، فيما يحاول آخرون ربط المشرق وقطرهُ بالعروبة من دون الالتفات إلى مكونات أخرى فيه وإلى تعدده وموزايكيته، والحالتان لا تجوزان.

هنا يجدر التساؤل، هل من عروبة واحدة يتفق عليها جميع العرب، وفي ظل أي منها يعيش الإنسان في العالم العربي ؟، وهل نختار عروبة اللغة، أم عروبة التاريخ الواحد،أو عروبة المصلحة أو العروبة المتأسلمة أو حتى العروبة الدينية؟، حتى نتمكن من وضع المشرق في إطاره الصحيح، وهذه أسئلة تحتاج إلى أجوبة بحثية، لا تتنطح هذه الوريقات للإجابة عنها بما يشفي الغليل تماماً..لكن لا بد من المحاولة.

في الواقع لا يمكن فرض الهويات والانتماءات، ويبدو أن تعبير أمين معلوف "هويات قاتلة" وجد صدىً لدى الكثيرين، لكنني أحاول البحث في "هويات قلقة"، فالانتماء يحتاج إلى وضوح الرؤية والتاريخ والأهداف التي يتشارك بها المنتمون.

واقعياً، لم تكن الجزيرة العربية غائبة أبداً عن المشرق، والقبائل العربية كما رأينا كانت موجودة فيه تتنقل في بلاد الشام والرافدين ، المشرق الذي لم يكن بدوره غائباً عن الجزيرة العربية، لكن العروبة لا ترتبط بالجزيرة العربية فقط، وهي في الوقت عينه ليست حكراً على الإسلام الذي خرج من هناك ثم استوطن المشرق وانطلق منه، ولقد كانت اللغة العربية موجودة قبل الإسلام، وهي من سلالة اللغات التي كانت تستوطن المنطقة المشرقية والأقرب إلى الآرامية والنبطية، ونظم بها شعراء فحول وصعاليك قبل الإسلام ، لكن القرآن ساهم بجعلها لغة عالمية فقد نزل بلهجة قريش، (قرآنا عربيا)، أما تاريخياً ومدنياً، فقد حصل انقطاع حضاري طويل بين الجزيرة

العربية والمشرق، أبقى الإسلام، وله الفضل بذلك، على خط سنوي فيه عبر الحجيج إلى مكة، فيما ذهبت العادات والتقاليد بعيداً في الفرقة بين مجتمع المدينة والقرية المشرقية وبين حواضر الجزيرة وصحاريها، فيما بقيت ارتباطات بين بعض القبائل في المشرق ونظيراتها في الجزيرة، التي باتت أحادية الدين بشكل واضح، حيث اقتصرت على المسلمين، على عكس التنوع العرقي والديني في المشرق.
أما فيما يتعلق بالمصلحة فقد تفتقّت بلاد العرب فيما بعد الاستعمار الجديد عن فرز واضح لبيئات جغرافية في المغرب ووادي النيل والجزيرة مع المشرق الذي يضم بلاد الشام والرافدين ومصر أحياناً، وتركزت العلاقات العروبية حقيقة بين المشرق ووادي النيل، وهي امتداد لتنافس وتكامل حضارتين قديمتين ولعلاقات ثقافية ومعاهدات تجارية منذ حوالي 4500 عام، مما يقتضي فعلياً بعد أن جمعت المصالح الأمم أن يسود التعاون والتكافل بين هذه البيئات ضمن أي مسمّى تختاره شعوبها.

من جهتها، أغرقت العروبة المتأسلمة واقع المجتمعات المختلطة برؤيتها الأحادية فحرفت الإسلام عن طريقه الصحيح وجعلت العروبة متقوقعة ضمن دين واحد.

يتساءل الكثيرون هل من الضروري أن يقال ويؤكد في كل مرة أنه مشرق عربي، وهل هذا الترداد مَرَضي لإرضاء الغالبية الأتنية فيه أو الغالبية الدينية؟، وهل في المقابل يوجد مشرق كردي مثلاً أو شركسي أو تركماني أو آشوري أو سرياني أو أرمني ...؟،إنه فعلياً مشرق متنوع، عماده العربية كلغة مع احترام عروبة ومشرقية وكردية وآشورية وأرمنية... كل من يحيا على أرضه ، وهذا واضح في مبادئ حقوق الإنسان والمواطنة التي تشكل عماد المشرقية المعاصرة.

في المقابل لا يسمع أحد صراخاً أو استنكاراً إذا أُعلن عن)الاتحاد المغاربي(أو قيل)مصر(من دون أن يضاف إليها عرب وعروبة، وها هم في الخليج أنشأوا مجلس)التعاون الخليجي(ولم يضيفوا كلمة عربي إليه، ولم تقم قيامة أحد، وهناك من يدعو لمجلس تعاون مشرقي أسوة ببلاد أخرى، وفي الواقع يمكن أن تنطبق المشرقية على)الهلال الخصيب(، أو تنقص أو تزيد عنه، ويمكنها أن تجد صدى

فـي)بلاد الشام(أو)بلاد الرافدين(أو جمعهما ،ولا ينتقص ذلك من المشرقية ولا من عروبتها .

لذلك يمكن لمن يجد نفسه فـي مشرق عربـي أن يطلق عليه هذا الاسم ولم يريد المشرق وحده بكل مكوناتها أن يقول مشرقاً من دون تخوّف باتهامه بالمروق، وكل هذا لا ينتقص من قيمة الجغرافيا المشرقية والتاريخ المشرقي الذي له أثر وتأثر بالعروبة وبجميع مكوناته الاجتماعية الأخرى.

المشرق وإيران

يجاور المشرق أمتان كبيرتان، إحداهما إيران)فارس(والأخرى تركيا.

تـعود الـعلاقـة مـع بـلاد فـارس إلـى مـاضٍ سـحيق مـررنـا عـلى بـعضـهِ فــي سـياق التاريخي، يعود إلى زمن الميديين الذين ظهروا كقبائل فـي الألف الثالث قبل الميلاد، وهم أقوام هندو- أوروبية، تردد اسمهم فـي النصوص الآشورية، لدى الملك شلمنصر الثالث سنة)843 ق.م(، وبعدها وردوا فـي نصوص عدة ملوك، وتحالفوا مـع الملك أسرحدون)680 ـ 669 ق.م(الذي ضمّن إحدى إسناد ترتيبات ولاية العهد وتنصيب آشور بانيبال خليفة له للميديين.

قاد قورش الأكبر)558 ـ 503 ق.م(ابن قمبيز الأول تمرد الفرس على جده الملك الميدي، وأصبحت)أكبتانا(، غرب إيران عاصمته، فانتهت المملكة الميدية بقيام الدولة الأخمينية عبر اتحاد الميديين والفرس، وتابع فتوحاته ليقضي على الإمبراطورية البابلية الحديثة سنة 522 ق.م، معلناً نفسه ملكاً على "الجهات الأربع للعالم"، مؤسساً أولى الإمبراطوريات العظمى التي ستعرفها بلاد فارس.

ضم قمبيز الثاني مصر عام 525 ق.م وباتت الإمبراطورية الفارسية تتحكم بمعظم المشرق، واصطدمت بالإغريق فـي عدة حروب حتى مجيء الاسكندر المقدوني وتغلبه عليها، وبقيت فارس تحت حكم السلوقيين حتى عام 250 ق.م. حين حكم الفرثيون القادمون من آسيا الوسطى.

تسامح الفرس مع جميع الديانات داخل إمبراطوريتهم، فاستمر وجود آلهة الإغريق

والمصريين ويهوه وقام الملك داريوس بتأييد
)أهورا مزدا(ليكون الإله الواحد الأسمى، ونصّب نفسه ممثلاً وحيداً له على الأرض، فـي خطوة تطورية للديانة الزردشتية، التي أثّرت بالمسيحية والإسلام معاً.

أمـا الـعلاقـة المـتداخـلة بـين المشـرق والـفرس فـتعود لـلساسـانـيين، أو الإمـبراطـوريـة الـفارسـية الـثانـية)226–651 م(، الـتي ضـمت إيـران والـعراق وأجـزاء مـن أرمـينيا وأفـغانسـتان وانتهت بـالفتح الـعربـي الإسـلامـي، وكـان الـفرس أول دولـة غـير آرامـية تسـتخدم الـلغة والأبجـديـة الآرامـية كـلغة رسـمية لـلمراسـلات و لـلعقود الـتجاريـة مـنذ قضائهم على الكلدانيين سنة 538 ق.م.

بعد الفتح العربـي سـاهـم الفرس بتثبيت دعائم الدولة العباسية وتشيّع أغلبهم، كما أنهم ضخّوا حضارتهم وثقافتهم ومثقفيهم ضمن الدولة الجديدة وبحياة بغداد وبلاد المشرق، ويعود الفضل إلى أبناء جلدتهم الكُثر بتطوير اللغة العربية، ومنهم سيبويه وبحفظ الحديث وروايته وتدوينه كالبخاري، وشعراء فحول مجددون)أبو نواس وبشار بـن بـرد(وابـن المـقفع والـجاحـظ وغـيرهـم كـثيرون، وعـلماء عـلم ودين، وقـد أبـقوا عـلى الحرف الآرامي عبر وريثه العربي، وما يزالون يكتبون به.
إن عـلاقـة المشـرق بـإيـران عـلاقـة مـتداخـلة لـغة وثـقافـة ودينـاً وسـيـاسـة ومـصـالـح وهـي ضرورة مشرقية وإيرانية معاً فـي التأسيس على مجموع هذه الروابط.

المشرق وتركيا

دخل الأتراك بهدوء إبان تهافت الدولة العباسية، لكن السلاجقة الترك الذين دخلوا فـي الإسلام 960 م، بدأوا بتوسيع حضورهـم فـي إيران وانتصروا على الغزنويين سنة 1040 وضموا فارس سنة 1042 م وأجزاء من الأناضول، وأخذوا العراق سنة 1055 م، بعد القضاء على دولة البويهيين ببغداد، وأعلن ملكهم طغرل نفسه سلطاناً وحامياً لبقايا الخلافة العباسية، ثم بسطوا سيطرتهم على الحجاز وأرمينيا والجزيرة العربية، وأنشاوا العديد من المدارس السنيّة فـي المنطقة، وانقسمت مملكتهم فـيما

بعد إلى ثلاثة، واحدة فـي قونية بالأناضول وأخرى فـي حلب وثالثة فـي كرمان.
أما الأتراك العثمانيون، وهم ينتسبون إتنياً إلى شعوب آسيا الشرقية ومنها المغول والصينيون، فقد أسس إمبراطوريتهم عثمان الأول بن أرطغرل، ودامت من العام 1299م حتى العام 1923م، وامتدت أراضيها لتشمل أنحاء واسعة من أوروبا وآسيا وأفريقيا،.

استطاع محمد الفاتح احتلال القسطنطينية، عاصمة بيزنطة، التي كانت تعدّ من أقوى وأكبر الإمبراطوريات عام 1453م، منهياً حقبة طويلة من اهتزاز الوجود البيزنطي، وبادئاً بحقبة سيكون لها تأثير على شعوب المشرق والعالم، حيث قضى بعدها السلطان سليم الأول على المماليك فـي معركة مرج دابق قرب حلب سنة 1516 م، بعد أن كان قضى سنة 1514م على قوات الدولة الصفوية بقيادة إسماعيل الأول واحتل عاصمتهم تبريز بعد معركة جالديران، وبذلك دخل المشرق والجزيرة العربية وجزء من شمال أفريقيا فـي سبات معرفـي وعلمي استطال أربعة قرون، وترك آثاراً كارثية.

نقل العثمانيون الخلافة إلى القسطنطينية التي صار اسمها اسطنبول، وأطلقوا على أنفسهم لقب الخلافة، وجاؤوا ببردة النبي محمد، ونقلوا العمال المهرة من البلاد التي فتحوها إلى عاصمتهم، ومارسوا الذّمية تجاه المسيحيين والقمع على الأقليات واندحر العلم والمعرفة وحل الجهل والتجهيل والتتريك فـي بعض الأحيان، وتفشت الرشوة من أسفل الهرم إلى ذروته وباتت سمة الإمبراطورية العثمانية وسمة فـي البلدان الواقعة تحت سيطرتها، وعلقوا المشانق ونصبوا الخوازيق لم يخالفهم الرأي، ولم يكن أمام متنوري المشرق من مسلمين ومسيحيين إلاّ الانتفاض وتأسيس نهضة جديدة انتهت بخروج العثمانيين عام 1916.
لم يقدم العثمانيون للإسلام رجالات فكر وعلماء دين مشهورين ولا شعراء أو كتاب، ولم يرفدوا العربية بأي إضافة تذكر، لا بل تنكروا بعد سقوط الدولة العثمانية للحرف العربي عبر استخدام الحرف اللاتيني، ومع ذلك ما تزال الذهنية العثمانية ودولتها" العلية" بفرمانتها الهمايونية، وبكواتها وأغواتها سائدة لدى الكثير من المتعصبين

مذهبياً والمتنفذّين عملياً على حد سواء، ولدى الإسلام السياسي التركي والعربي، وهذه الذهنية تشكل خطراً على الدول الوطنية وتطورها وحريتها وديمقراطيتها في المشرق.

إن العلاقة بين الأتراك والمشرقيين طويلة ومتشعبة وهناك تداخل عائلي حصل عبر القرون الطويلة، إضافة إلى الحدود الطويلة التي تمتد بين المشرق وتركيا الحديثة مما يستوجب أن تكون العلاقة مع تركيا محكومة بالاحترام والمصلحة المشتركة، لا علاقة شعور فاتح قضى 400 عام في المشرق بصفة باشا وآغا وبيك، وأن تحكمها علاقات حسن الجوار مثلها مثل بقية جوار المشرق، فيما عدا إسرائيل لأنها من مزروعة بالقوة بالنسيج الجغرافي المشرقي.

مستقبل المسلمين والمسيحيين المشرقيين في) كلمة سواء(

اتسمت العلاقة بين المسيحيين والمسلمين تاريخياً بالقبول بالآخر كما هو، بعاداته وتقاليده وعباداته، على قاعدة أن الاثنين يعرفان أنهما من سكان البلاد الأصليين، لا بل يطغى شعور مسيحي محق بالأقدمية، فبقيت علاقات التجاور والتزاور والمصالح الاقتصادية والمشاركة الاجتماعية في الأحزان والمآتم، بينما بقي الزواج المختلط قليلاً بعد تحوّل المسيحيين إلى أقلية، كما أن العائلات التي انقسمت دينياً ذهبت إلى ممارسة شعائرها الدينية والطقوسية مع اعتراف بأصولها، وساهم ترحال العائلات قبل تقسيم سايكس- بيكو وظهور الدول الوطنية بخفض مستوى التقارب بين هذه العائلات، وما زال المسلمون حتى اليوم يزورون مزارات مسيحية مثل)سيدة صيدنايا(و)دير القديس جاورجيوس(في وادي النصارى بسورية، حيث يعتبرون

القديس جاورجيوس)الخضر(شفيعاً، وهو من أكثر القديسين شعبية في المشرق، فيما تنذر بعض العائلات أولادها على أسماء أولياء مسلمين أو قديسين مسيحيين، فيما لعب المسيحيون منذ القرون الإسلامية الأولى دوراً رائداً في إيصال الفكر وتعميم الترجمة وإقامة الجسور مع الغرب وبالعكس، وكذلك حصل في عصر النهضة والتنوير وصولا حتى هذه الأيام.

الإسلام فعلياً ذو ركن مشرقي، من خلال معراج النبي محمد من القدس..أما أكناف بيت المقدس فهي مشرقية، وقد حصل الإشراق الإسلامي عبرَ إمبراطوريتين قاعدتها عاصمتا المشرق، دمشق وبغداد، ومنهما إلى العالم، والمسلمون يؤمنون بأن عودة السيد المسيح ستكون إلى مئذنة عيسى في دمشق.
إن ما يجمع المسلمين والمسيحيين المشرقيين كثير، وهناك ما يفرّق أيضاً، لكن أي تأسيس مواطنيّ يجب أن يقوم على ما يجمع، ولذلك فإن الابتعاد عن التكفيرية والإلغائية والقراءة الأحادية والمبتسرة للنص ضرورة لوحدة المجتمع في المشرق ومصر وبلاد العرب، اتكاءً على ثقافة تراكمت خلال الألفي عام السابقة من الديانتين الكبريين، الإسلام والمسيحية، ولذلك فإن البحث عما يجمع يتناول الحدَث والنص.

والقراءة المتأنية لعلاقة النبي محمد بأهل الكتاب، وبخاصة المسيحيين منهم، تمنح عبرة وخارطة طريق للمسلمين بتلّمس علاقاتهم بالمسيحيين، وهي واجبة جداً بعد ارتفاع منسوب التكفيريين والقتلة باسم الله، وأدعياء الفتاوى الكيفية وتفتيت المجتمعات دينياً وطوائفياً ومذهبياً، ولذلك فإن الأخذ بالأحاديث النبوية ذات الطابع الإشكالي تقودنا إلى زوايا الفرقة والتنابذ، ولكن ما ورد في أحاديث عن النبي محمد"إني لمعاقب من يجحف نصراني ذمي أو يفرض عليه واجبات مرهقة"يجعلنا نتفكر، هل كان النبي يريد المسيحيين درجة ثانية في دياره؟، أم يريدهم كما روى البخاري ومسلم من أنه قَال "مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، وَأَنَّ مُحَمَدًا عَبْدُهُ وَرَسُولهُ، وَأَنَّ عِيسى عَبْدُ اللهَّ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاء" يقودنا إلى آفاق أرحب.
لقد بانت طبيعة العلاقة بين المسلمين المضطهدين من بني قومهم والمسيحيين منذ

بداية الدعوة، حيث توجه المسلمون إلى ملك مسيحي في الحبشة، أمّا النبي محمد نفسه فصلّى على النجاشي النصراني ملك الحبشة في البقيع، ولم يكن كثيراً عليه أن يوسع حيّزاً لوفد نجران النصراني ليصلي صلاة الفصح بجامع المدينة عام 631 م، ومنذ اليوم الأول للمسلمين في المشرق نجد نصوصاً واضحة للتعامل مع المسيحيين مثل عهدة النبي لدير القديسة كاترينا وفيها "لا يغيّر أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سايح من سياحته ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ولا يدخل شيء من بناء كنايسهم في بناء مسجد ولا في منازل المسلمين فمن فعل شيء من ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله ولا يحمل على الرهبان والأساقفة ولا من يتعبد جزيةً ولا غرامة وأنا أحفظ ذمتهم أين ما كانوا من برّ أو بحر في المشرق والمغرب والشمال والجنوب وهم في ذمتي وميثاقي وأماني من كل مكروه...")كتابة علي بن أبي طالب، وشهود منهم: أبو بكر بن أبي قحافة، عمر بن الخطاب ، عثمان بن عفان، علي بن أبى طالب، عبد الله بن مسعود، العباس بن عبد المطلب، الزبير بن العوام(، ومنها أيضاً عهد النبي لأهل أيلة، وعهده لأهل أذرح ومقنا، ودير مار جرجس الحميراء بسورية، وعهدة خالد بن الوليد لأهل دمشق، وعهدة الخليفة عمر في فتح القدس، وعهد أبي عبيدة بن الجراح لأهل بعلبك، وعهدة عبد الله بن سعد لعظيم النوبة.

من جهته قال الخليفة الراشدي الأول، أبو بكر الصديق لجيشه عند إرساله لفتح الشام "وسترون في طريقكم رجالاً متوحدين ناسكين فاحتفظوا بهم ولا تمسوا أديارهم بضرر، وورد بوصية أخرى "لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا تقطعوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون على قوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له".

أما النص، فقد حاولت القراءات الأحادية استخلاص آيات وأحاديث وأقوال وعبارات، اعتمدت تفسيرها بشكل خاص ولمصالحها السياسية، وتوَّسل خطابٍ سياسي تكفيري اجتزأ من القرآن الكريم والحديث ما طاب له ولغاياته السياسية محاولاً فرض

تطرّفه وانغلاقه على المسلمين قبل المسيحيين.

لكن تبيان الحقيقة والواقع يقتضي التأسيس على ما يجمع الديانتين المشرقيتين والعالميتين في آن، وهو كثير جداً في النص القرآني، والإسلام الذي انطلق إلى عالميته من عاصمتين مشرقيتين محكوم بما تركه فيهما وفي بقية مدن المشرق من تسامح ومحبة وإخاء وتراحم وصوفية، لذلك فإن المشرقية العامة والجامعة تعتمد الآية التالية: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ..."
)آل عمران 64(، فـ)كلمة سواء(هي مفتاح العلاقة بين الديانتين معاً وبين المذاهب والطوائف في المشرق، ومنه إلى العالم، ولا تتبدى الكلمة السواء إلاّ بالحوار ، حسب ما يوصي به القرآن "وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»)العنكبوت 46(.
لقد ورد ذكر المسيحيّة والمسيحيّين في القرآن ضمن حوالي 117 آية ، اعتبر فيها عيسى ودينه ديناً شقيقاً، لذلك يتحمّل المسلمون المشرقيون عبء وضع الإسلام في إطاره الصحيح، إطار الدعوة التي لا تفرّق بين الأنبياء والرسل، القائمة على احترام العقائد "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا")النساء 136(.
يتابع القرآن الكريم مطالباً المؤمنين "قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ")البقرة 136, آل عمران 84(. ويضيف "لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ»)المائدة 68(.
إن الله العلي هنا هو من أراد أن لا يجعل الناس على دين واحد، لا بل ترك ملايين البشر من دون كتاب أو وَحي، وها هم مليارات البوذيين والهندوس وغيرهم من دون كتاب إلهي "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً")هود 118(، وهو الذي يقول" إِنَّ
ا
لَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللّهَ يَفْصِلُ

بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ")الحج 17(، فحتى الذين أشركوا يفصل الله بهم يوم القيامة، فليس من أحد ديّان إلاّ هو، ومن هنا لا مكان للتكفيريين في الإسلام، فكيف إذا كان هؤلاء يكفّرون المسيحيين ويصفونهم بالصليبيين والكفّار والمشركين؟.

يضم القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة، وردت فيه كلمة
)المسيح(11 مرة، وكلمة)عيسى(عذراء "قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا")مريم 20(.
وهو رسول الله وكلمته "إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهَّ وَكَلِمَتُهُ...")النساء 171(و "يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَّ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ...")آل عمران 45(.
وإنه من روح الله "إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهَّ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ")النساء 171(.
وهو كذلك المعصوم الوجيه المقرّب "وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ")آل عمران 45(.
وإنه العجائبي "أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهَّ")آل عمران 49(. "وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ...")آل عمران 49(.
ووصفه أيضاً بأنه العارف بالأسرار "وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ")آل عمران 49(.
وقال إنه من يحيي الموتى "وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهَّ")آل عمران 49(.
وهو الذي يقوم من بين الأموات "وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا")مريم 33(.
لا بل كرّم القرآن المسيحيين الذين آمنوا بالمسيح "وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ")آل عمران55(.
وتعطينا سورة المائدة، وهي سورة مدنية، ومن أواخر السور التي نزلت، صورة واضحة لما ورد آنفاً عن أهل الكتاب، يمكن إضافتها إلى سورتي مريم وآل عمران، لأنها تضم بين آياتها كيفية المعاملة معهم من خلال "إِذْ قَالَ اللهَّ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ

اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ")المائدة 110(.

أما السيدة العذراء مريم فلها مكان جليل في القرآن حيث ورد اسمها 34 مرة، وهي الاسم الأنثوي الوحيد الذي ذكر فيه، ولم يكتفِ بتكريمها بسورة عدد آياتها)98(بل اتبعها بسورة آل عمران التي تكرّم آلَها وعدد آياتها)200(فهي التي اصطفاها الله على نساء العالمين جميعاً "وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَّ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ")آل عمران 42(، وجعلها مع ابنها المسيح آية"وَجَعَلنا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمّه آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ")المؤمنون 50(.
لقد كرّم المسلمون في كل بلد حلوّا فيه، من نجران إلى الحيرة وطرطوس وأنطاكية العذراء مريم، ولم يقربوا الكنيسة المريمية، معقد صلاة ورسامة قبيلتي تغلب وغسّان في دمشق، وهذا دليل إضافي على أن الإسلام يقترب من المسيحية إلى حدٍّ كبير انطلاقاً من المسيح ومريم وصولاً إلى القسوس والرهبان "لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ")المائدة 82(، مع احترام كبير للإنجيل الذي أتى المسيح من عند الله "وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور")المائدة 46(، حتى أن الله طلب من نبيّه محمد "فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ")يونس 94(.

ما سبق هو مصطبة العلاقة بين المسلمين والمسيحيين المشرقيين، وعبره تستقيم الاعوجاجات التي شابت هذه العلقة جراء المنحى التكفيري لبعض الإسلامويين، وإن خروج أي مسلم عن هذا المنحى في التعامل مع المسيحيين عموماً والمشرقيين منهم بخاصة، هو خروج عن أسس الإسلام وركائز الدين، فليس منّة أبداً التعامل المبني على الاحترام بين الديانتين السماويتين المتوازيتين فالمسيحيون هم "مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ")آل عمران 113(، ومن الواجب ألاّ تؤثر الصراعات السياسية والتوترات على الحياة المشتركة، وألاّ يستخدم الإسلام السياسي الذي نما وتصاعد في المشرق والعالم العربي منذ العام 1970 كفزّاعة للأخ الآخر في الوطنية، ولذلك يقع على عاتق المسلمين المشرقيين عبء العمل بجد على تعميم فهم الأجيال الطالِعة لدور وحضور المسيح والمسيحيين ضمن النص القرآني وفي الحياة المشتركة للوصول إلى هذه الـ)كلمة سواء(، عبرَ نشر ثقافة ما يجمع من منطلق"وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِد".

آفاق المشرق المعاصر

ما يزال المشرق يعيش حتى اليوم واقع مفصليته الجغرافية وآلام وجود إسرائيل في قلبه، ومحمومية نفط فيه وعلى تخومه وبدول يريد الغرب أن تبقى خارج الحداثة والمعاصرة وإنجازات العلم، وقد ازدادت الخلافات فيه انطلاقاً من المعطى التاريخي، فجميع مكوناته تعتبر نفسها ذات أحقية في التسيّد، فيما لعبت القوى الكبرى ذات الأطماع الاقتصادية والسياسية على تعميق الشرخ الديني والمذهبي فيه بعد انكفائها عن القتال المباشر والاحتلال الاستيطاني أو المبطّن عبر أنظمة الفرد/ الحاكم.

ويتمظهر الخلاف على الأحقيّات من خلال عدم قبول الطوائف ببعضها وعدم القبول بشرعية المذاهب ضمن الطوائف فيما بينها، فيما تبقى الإتنيات بطوائفها ومذاهبها تشعر بالغبن السياسي والتاريخي معاً، فبالنسبة للأديان، هناك تنافس وتقاتل سنّي-شيعي وسنيّ – علوي، فيما تصبح المكوّنات الصغيرة المذهبية الأخرى ضحية الإلغاء، أما المسيحية فهي واقعة وسط محاولة إلغاء، فأغلب السنيّة السياسية يعتبرها متغرّبة، وقد أصبحت أقلية في العراق، فيما تعاني من حالة تهجير معلن ومخفي في سوريا، أما بفلسطين فقد باتت بعد أن فعل الإسرائيليون العجب بالمسيحيين واستوردهم الغرب، مسيحية متحفية، ونسبتهم في الأردن لا تذكر، أما لبنان فأصبح

جواز السفر والجنسية الثانية مقصداً للشباب المسيحي والمسلم معاً، وبمصر يقوم الإسلام السياسي الأخواني بمحاولة شطب الحضور المسيحي، فيما الهجرة تكتسح العقول والأيدي الماهرة.

ومن جهتهم فإن الكنائس المسيحية المشرقية تبدو حتى اللحظة وكأنها ما تزال تحت صدمة الصراع على جنس الملائكة في تلك الساعة من يوم 29 مايو 1453م ، حين كان محمد الفاتح يقتحم أسوار القسطنطينية وهم يمعنون بخلافاتهم الصورية، فهم ما يزالون يتعاطون كل ضمن طائفته ومذهبه، مع تنسيق في الحد الأدنى.

ومازال مسيحيو المشرق العلمانيون يعتبرون أنفسهم أيضاً مؤتمنين على التراث المسيحي وينظرون لأنفسهم كسكان البلاد الأصليين فأغلبهم ما زالوا فخورين بمشرقيتهم، وكذلك الكاثوليك والموارنة رغم محاولات التغريب وسطوة الحضارة الغربية، وما زالوا مقتنعين أن العلاقة مع الإسلام يجب أن تبقى محكومة بالمواطنة وبتقاسم الحقوق في الدولة الوطنية.

وفي الواقع ما يزال الغرب يستغرب هذه العلاقة بين المسلمين والمسيحيين المشرقيين، بخاصة أنه تعرّف على الإسلام في العصر الحديث ابتداء من سلفية جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، كردّ على الحقبة الاستعمارية الغربية، وصولاً إلى الإسلام المعاصر السلفي التكفيري الذي ساهم الإعلام بتضخيم صورته وهو "الإسلام الجهادي التكفيري الإلغائي البنلادني"، و"الإسلام الوهابي")نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب)1791-1703م(الذي أنشأ حركة في الجزيرة العربية تحمل معها مرجعيتها السلفية ممثلة بفكر ابن تيمية)1327-1263م(المرتبط بفكر ابن حنبل.

أما الأقوام التاريخية مثل الآشوريين والكلدان والسريان فإنها رحلت أو تنتظر ساعة الرحيل، فيما الأرمن والشركس والأكراد والتركمان وبقية الاتنيات تحاول أخذ حيّز لها.

وعند قراءة المعطيات نجد قلّة ممن يقيمون الجسور الحقيقية تاريخياً ويعبرونها، ولذلك تبدو المشرقية كإطار جغرافي معاصر حاجة ملحة، لأن الجغرافيا والمصلحة في البقاء عليها تجمع كل المكونات التي تحيا على هذه الرقعة المشرقية، وما دامت الهوية

لم تتشكل بعد وهناك خلاف عليها، لماذا لا تكون الجغرافيا المشرقية بأتنياتها وأديانها وطوائفها ومذاهبها وملها ونحلها بوتقة جامعة على قاعدة المواطنة والمصلحة المشتركة ضمن الدول الوطنية الواحدة، وبين دول المشرق مع بعضها البعض، وبالطبع لو اعتمدت الدول المشرقية والعربية مبدأ المواطنة بعيداً عن الصبغة الدينية لكان الوضع الاجتماعي والسياسي لجميع مواطنيها بجميع مكوناتهم أفضل بكثير.

إن المشرق يحتاج بعد هذا الاجتياح الديني التكفيري، وجراء ما نجم عما أسموه بـ"الربيع العربي" إلى نهضة ثانية تنويرية على المثقفين والساسة تنكبها، تعتمد على المواطنة وحقوق الإنسان والديمقراطية الحرية وسيادة القانون العادل وتكافؤ الفرص والاعتراف بحقوق جميع مكونات المشرق في الثقافة والسياسة والاقتصاد، تعويضاً عن النهضة الأولى الجهيضة والتحاقاً بعالم ما بعد الحداثة وسيطرة المعرفة على مقدرات المجتمعات المعاصرة.
ولذلك يجب التأسيس على مشرقية تتبع نهج كلمة سواء، مبنية على التسامح الديني والعرقي والثقافي،
فالمشرقية هي نموذج الحياة المشتركة بين المسيحية والإسلام منذ 14 قرناً، وهذا النموذج هو الوحيد الذي يمكنه منع الدول مستقبلاً من الانزلاق إلى صراع الحضارات أو نهاية التاريخ.. عبر صراع الأديان .
وعلى من يتنكب هذه الأفكار الابتعاد عن التحجر والتقوقع والتعصب والشوفينية، والنظر إلى المصلحة الواسعة للأجيال القادمة في البقاء على هذه الأرض والتأسيس على ما يجمع، والنظر سياسياً إلى نموذج مصلحي يجمع بلدان، مثلما جمعت دول البريكس مصالح دولها، عبر إيجابية تضم تآلفاً بين الأعراق والديانات والقارات الأربع.

خاتمة

مراجع عربية

- البلاذري: فتوح البلدان، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت.

- ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، 1925.
- ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر, 1995.
- ابن شداد: تاريخ دمشق، الأعلاق الخطيرة فـي ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق زكريا عبارة، وزارة الثقافة السورية، 1991.
- الطبري: تاريخ الرسل والملوك. دار الكتب العلمية – بيروت،1987.
- ابن البطرق: نظم الجواهر
- ابن العبري)غريغوريوس(: التاريخ الكنسي، التاريخ السرياني، تاريخ مختصر الدول.
- جورج حداد: فتح العرب للشام، بيروت 1931
- فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد ومجموعة، بيروت، دار الثقافة 1958.
- المفصل فـي تاريخ العرب قبل الإسلام د.جواد علي، المجلد الأول، دار العلم للملايين، بيروت 1969.
- لويس شيخو: النصرانية وأدابها بين عرب الجاهلية، دار المشرق، بيروت، ط2، 1989.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، طبعة مصر، 1906.
- إحسان عباس: بلاد الشام فـي العصر الأموي، طبعة عمان.
- المطران يوسف الدبس: تاريخ سورية الدنيويو المدني، بيروت، المطبعة العمومية 1983.
- حبيب الزيات: الروم الملكيون فـي الإسلام، حريصا- لبنان 1953.
- أسد رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكيا 3 أجزاء، منشورات النور. الروم وصلاتهم بالعرب، المطبعة البولسية، 1983.
- البطريرك زكا الأول عيواص: كنيسة أنطاكيا السريانية عبر العصور، حلب 1981.
- جان موريس فـييه: أحوال النصارى فـي خلافة بني العباس، دار المشرق 1990.
- الأب متري هاجي اثناسيو: موسوعة بطريركية أنطاكيا التاريخية والأثرية، المجلد الخامس 1997.
- د. علي أبو عساف, الآراميون، دار الأماني، 1988.
- أندريه بارو، سومر، ترجمة سليم التكريتي وعيسى سلمان، وزارة الثقافة، بغداد، 1978.
- محمد محفل, اللغة الآرامية، جامعة دمشق،1991.
- محمد حرب فرزات وعيد مرعي، دول وحضارات فـي الشرق العربي القديم، دمشق 1990.
-عيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام 539ق.م، دمشق 1991.
- فراس سوّاح، لغز عشتار، دمشق 1985.

مراجع أجنبية

-H.lammens,.la Syrie, précis historique,1921,etudes sur le règne de mo awia ,etudes sur le siècle omayyades.
- J.S.Trimingham Christianity Among the Arabs in the PreIslamic
Times, Longman, Coadon,1979.p.l
- J.de goeje, memoires d histoire et de geographique orientales, 1900, la conquete de la Syrie.
- Canivet,p:le christianisme en Syrie des origins a l avenement de l islam, Saabrucken 1989.
- Edelby,Neophytes: l'autonomie legislative des chretiens d'orient sous la domination musulmane de 633-1517, these inedte, Rome 1950.
- Moorhead, J:the monophysite response to the arab invasion, in byzantion 1981.

- Sartre,m:bostra.des origins a l islam,paris 1985.
- Koldewey, R, Das Wieder Erstehende Babylon (Muenchen) 1990.
_ Klengel- Brandt, E, Reise in das Alte Babylon (Leipzig) 1971
- Charles L Redman (the rise of civilization) 1978 .
- Jacques Cauvin (neolitiques) 1972.
-Gordon Childe (the most ancient near east) 1928.